مطعم على رصيف الحلم

اسم الكتاب: مطعم على رصيف الحلم، مجموعة قصصية
اسم الكاتب: نرمين الشرقاوي
تدقيق لغوي وإخراج فني: عبد الله أسامة
تصميم الغلاف: لينا شاهين
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢١٦٨٤
الترقيم الدولي: ٩-٦١-٦٠٥٦-٩٧٧-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر؛
يُعرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

شهرزاد للنشر والتوزيع

shahrazadpub@gmail.com

شهرزاد
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

مطعم على رصيف الحلم

(قصص)

نيرمين الشرقاوي

إهداء

إلى منة وآية وكريم..

ملح الكتابة وسكرها.

المحتوى

أنا وهي	٣
حكاية الولد والبنت	٥
مقعد بجوار النافذة	١١
الوردة	١٣
زيارة إلى طبيب الأسنان	٢٠
بياض	٢٤
مثل حبة مشمش عملاقة	٣٠
أبيض وأسود	٣٦
مطعم على رصيف الحلم	٤٠
يأتي سبتمبر	٤٦
عطور من ذاكرة الفقد	٥٠
الأرنوب يكتب دكتوراة	٥٣
من دفتر أحوال مدينة الظلال	٥٩
في قاعة المرايا	٦٨
طفلة القمر الأزرق	٧٦

أنا وهي

لماذا تتدلل عليّ؟

أناديها، فلا تجيب. تناديني؛ فأتظاهر بالصمم. تعاود النداء؛ مرات ومرات. وما إن أهم بالاستجابة لها، حتى تسارع في التواري؛ مرات ومرات ومرات. قررت أن أعود أدراجي، أن أسارع بالفرار وأن أحكم غلق الصومعة. سأضع أصبعيّ في أذنيّ. لكني لا ألبث أسمع النداء، بل قل العويل صارخًا من داخلي مع كل نبضة، حتى ليكاد يهشم أضلعي. لا أصمد كثيرًا أمام قرعات الإعصار. أستسلم. أفتح البوابات وأسمح له أن يجتاحني. أحاول التقاط أنفاسي والبحث عن طرف للخيط. عن بداية ما قد تصلح للغزل، أو حتى للصفح. فلقد تيقنت أن الاعتذار لم يعد يجدي، وكذلك إبداء الندم والعزم على اللاعودة. ورغم الاستتابة فهي تعرف مسبقًا أني سأعاود الفرار؛ لذا تواصل نسج الشباك، وتحكم إخفاء الشراك، وأعرف أني مرصودة للذوبان.

من ألوم لو سقطت في البئر؟ لن تقلني من عثاري. ستظل كما أزلًا؛ تتوارى خلف حجاب الصفحة البيضاء. كأي حقيقة؛ تطل عليّ ولا أراها. كأيّ فتنة يتمدد وجودها فيملأ كل ما وراء البياض المضيء. ينخلع قلبي من نظراتها التي تخترقني لكنها لا تلبث تتجاوزني إلى ما ورائي. زجاج

أنا لهذا الحد أم تراني قد صرت هواء؟ يلجمني الرعب حتى من النظر خلفي -أم لعله أثر الصفد القديم على الرسغ؟

هل هي الغواية المقدرة؟ صحيح أن نظراتها ليست غاضبة ولا لائمة، لكنها مخترقة. حارقة بلا نار. كاشفة للسر الذي كان بيني وبيني. وكلما عاتبتها أربكتني، بل كادت تشمت بي. بصمتها تقسم أنها قط لم تشِ، بل إني أنا الواشية. ولكن؛ ألم تكن هي من أغواني بالبوح؟ صحيح أن شفتيها كانتا مطبقتين على المستور في الحنايا، لكن عينيها السوداوين كانتا مسبلتين على تفاحتين، فما كان مني إلا أن انجذبت نحو بئر، وثقب أسود، وسديم. وهل قاوم بشر قبلي غواية تفاحة محرمة؟ نعم كنت أنا التي أذعت السر بقدر ما سوّد القلم، ولا غيري يُلام. أعترف أني حاولت أن اتخذها مطية إلى حقيقة أتشوّفها، وكنت أظنني فارسًا قديرًا بأن يلجم جوادًا جموحًا. لكنها كانت من امتطاني كمهرة مروضة تنقل حمولة من حكايات. أعترف أني بقدر ما كشفت انكشفت؛ كما الصحراء، كما الصمت، كما الكلمات. لكن الكلمات خانتني، بل كانت أول الخائنين.

أنّى لي أن أقاوم قضم تفاحة محرمة؟ سأسقط في الغواية ولن تقلني. سأخلع كلماتي وأقف بيضاء. سأتحمم في فيض من ضوء القمر إلى أن يجيء الفجر فيسترني. وسأظل ألهث وراء ما تَعِد وتمنِيني. أعرف أنها ستظل توشوشني؛ لكن فقط بين عقلي وجنوني. أعرف أني سأذعن رغم أنف الحارس، وبأني صرت محكومة بأن لا أسلك للسلامة طريقًا، وأني

سـأخسر دومًـا في هـذه المسـاومة، رغـم أني أدرك تمامًـا حقيقة أنهـا لا تناديني إلا كي أظهِـر كل مـا اجتهدنـا العمـر نخبئـه في بيـاض مـا بـين السـطور.

حكاية الولد والبنت

«ما تِبْكي، أنا بْجيبلِك حقك!»

قالها الولد الصغير ثم انطلق في إثر الولد الكبير الذي باغت البنت الصغيرة على حين غفلة منها، فخطف منها أسطوانة «البرينجيلز» الزرقاء التي كانت تتناول واحدة من مقرمشاتها في استمتاع ما كاد يبدأ حتى انتهى.

الحكاية تقول إن الولد الصغير اسمه أوريل، وأن البنت الصغيرة اسمها شيراز، وأنهما تلميذان في الصف الثاني الابتدائي. أما الولد الكبير فقد كان في الصف الرابع، يعني أكبر صف بالمدرسة. من غيمة الدموع المذعورة رأت شيراز أوريل يركض وراء الولد الكبير في فناء المدرسة الفسيح حتى اختفيا عن أنظارها القصيرة، ثم عادا للظهور في دورة ركض جديدة بعد أن ألهبهما الحماس. يصطدمان أحيانًا بأطفال آخرين، يوقعانهم أرضًا فلا يلتفتان ولا يعتذران، كحال أي ذكرين بشريين من قطيع واحد يندمجان في «قتلة» أي «عركة» أو «خناقة» في لهجات عربية أخرى.

ذهبت شيراز التي لا تزال تبكي مع صاحباتها المتجمعات في آخر فناء المدرسة مع بقية من صبية الصف الذين تتكون منهم «عصابة أوريل». قالت ديمة «خلليكي معنا» بينما ظلت عينا مازن تتابعان

المطاردة في انتباه الجنود الحراس. أحيانًا يعلو صوته فيقول «خَلَص، لِحْقه» فيتنفس الأولاد الآخرون المنتظرون في لهفة، ثم ما يلبث أن يقول «فلت الكلب»، فيستولي الوجل المترقب على قلوبهم من جديد. وهكذا ظلت المشاعر الصغيرة تضطرم وتشتعل، والأصوات تعلو وتهبط، وشيراز تتابع المطاردة بقدر ما يسمح به امتداد بصرها المبلل في الفناء الشاسع المزدحم، وتكمل الصورة الغائمة بما تلتقط من كلمات مازن المقتضبة أو صيحات ديمة القلقة. ثم حانت لحظة انطلق فيها مازن كسهم نافذ، فأمسك بالولد الكبير الذي أنهكه أوريل بالركض. وضمنت العصابة انتصارًا مستحقًا في «القتلة» أي «العركة» أو «الخناقة» في اللهجات العربية الأخرى، وهلل عبده وسميح وديمة ورنا وأطفال آخرون ممن تبسط العصابة عليهم حمايتها. أما أوريل فقد كان لا يزال يلتقط أنفاسه بصعوبة، ورغم ذلك توجه نحو شيراز، وأعطاها أسطوانتها الزرقاء قائلًا: «معليش الحيوان أكل منها شوي، ونحنا وقع منا شوي». نلاحظ أن الحيوان الذي يقصده أوريل هو الكلب الذي كان يعنيه مازن وهو الولد الكبير الذي لم تذكر الحكاية اسمه. لا توافق الحكاية على سب البشر الذين يأتون أفعالًا مشينة بأسماء الحيوانات؛ لأن في ذلك ظلم بيّن للحيوانات التي لا تعرف الشر. هي أيضًا لا تعرف الخير، لكن البشر دأبوا على تقسيمها إلى حيوانات طيبة وشريرة، غبية وماكرة، ضعيفة وقوية. ورغم أن الحكايات غير راضية تمامًا عن هذه القسمة لكنها امتثلت في الأخير لأنها تريد أن تحكي عن البشر، والبشر هكذا يقولون، والبشر هكذا يفعلون.

شكرت شيراز أوريل الذي قال لها: «انتبهي ع حالك ولو في مِشْكِلة تعي لَعِنا». ورغم أن الذهول لا يزال يستولي عليها ويربكها، إلا أن شيراز فرحت كثيرًا أنها هي أيضًا قد صارت تحت حماية ما سماه أطفال الصف «عصابة أوريل»، ولن تضطر أبدًا أن تواجه العالم وحيدة. قالت ديمة: «هيك ما بتشيلي هم شي». أكدت شيراز أنها ستبذل كل ما في وسعها لتكون عضوة جيدة في العصابة، وكانت تريد أن تقف معهم مدة أطول لتتعرف على الألعاب التي يمارسونها، لكن دق جرس المدرسة معلنًا انتهاء «الفرصة» أي «الفسحة» في اللهجة المصرية، فتدافع الأطفال عائدين إلى فصلهم لاستكمال الحصص. لم يفت شيراز وهي تصعد السلم أن خديّ أوريل لا يزالان ينبضان بالحمرة من جراء الركض وراء الولد الكبير. كما لاحظت أن لون خصلات شعره الناعم المتهدلة على جبهته في لون الشاي الذي يحبه أبوها. أما عيناه الواسعتان فكانتا في حجم ولون حبات الكستناء. تحب شيراز كثيرًا أن تأكل الكستناء خصوصًا حين تغطي الثلوج قمة الجبل الذي عليه بيتها، وتغطي الأشجار الطويلة جدًا التي في الطريق الصاعد إليه؛ فيرتسم المشهد وكأن عملاقًا ألصق ندف قطن على بيت الدمى. في تلك الليالي البعيدة كان أبوها يجلس على الأريكة الكبيرة وأمامه كيس ضخم يحوي حبات الكستناء غير الناضجة. يخرجها حبة حبة، يشق كل واحدة بالسكين على شكل صليب ثم يرصها على الصينية. تأتي أمها التي كانت واقفة في المطبخ تخبز كعكًا بالقرفة وآخر بالزنجبيل، فتأخذ الصينية، تضعها في الفرن فتتفتح حبات الكستناء عن قشرتها البنية وتخرج ناضجة محمصة عليها زغب

خفيف مثل عصافير هشة خرجت للتو من بيضتها. تأكل شيراز مع أمها وأبيها كعكًا وكستناء، تشرب كاكاو، تشبع دفئًا ومحبة.

سرحت شيراز في الذكرى الجميلة وفي الوعد الذي سيتحقق قريبًا. فلقد سافر أبوها إلى بلد بعيد لم تحفظ اسمه بعد. والمقرر أن يعود في العطلة المدرسية التي يأخذها الأطفال حين يسقط الثلج. قفشت شيراز نفسها وهي تدقق في وجه أوريل وتتساءل إن كان يشبه أباها. صففت غرتها، واحتياطيًا أيضًا اطمأنت على حسن تهذيب شرائط الساتان الأبيض في آخر ضفيرتيها الطويلتين جدًا، السوداوين مثل رداء الأخت ماري روز المخملي. فالحكاية لا تريد أن تنسى أن شيراز بيضاء مثل الثلج، وفمها صغير وأحمر مثل الكرز، مما دفع كل من يقابلها إلى أن يشبهها بالأميرة المعروفة باسم «سنوو وايت»، بينما يقطع آخرون أنها أجمل منها فينادونها تدليلًا «الأميرة ساندرين» أي «سندريلا» بعد أن نسي الجميع أن معناه أصلًا «فتاة الرماد»، لكن أباها يناديها «أميرتي، وأميرة كل القلوب». ترى هل تصير أميرة العصابة؟ فكرت شيراز أنه من الممكن أن تدعو أوريل لحفل عيد ميلادها الذي سيحين في الصيف، وتساءلت إن كان يقبل الدعوة. ترى ماذا يمكن أن يهديها؟ لقد أهداها أبوها في العام الماضي تاجًا صغيرًا مرصعًا بنجوم السماء وجناحي فراشة بألوان قوس قزح. لقد أحبت هذه الهدية كثيرًا. هل يهديها أوريل أيضًا جناحي فراشة؟ أو ربما يهديها عصا سحرية فتصبح جنية طيبة! لماذا يُذكّرها أوريل بأبيها الذي سافر إلى بلد بعيد لم تحفظ اسمه بعد؟

انتبهت شيراز على صوت أقرانها في الفصل وكل منهم ينادي: «أنا يا آنسة! أنا يا آنسة!». أدركت شيراز أن المعلمة طرحت سؤالًا في أثناء استغراقها في تأملاتها وأن الصغار يتسابقون ليفوز أشطرهم بالإجابة ومن ثم تطبع له المعلمة نجمة حمراء على يده أو جبينه. مالت على صاحبتها ديالا التي تجلس إلى جوارها وسألتها بصوت منخفض: «عن شو عم تِسأل الآنسة؟» أجابت ديالا أن السؤال المطروح يدور حول اسم الإشارة الذي يأتي قبل كلمة «فراشات». في تلك اللحظة لمحت المعلمة ديالا ووبختها على الحديث مع صاحبتها أثناء الدرس. ثم قررت على سبيل العقاب أن تفرق بينهما في ترتيب الجلوس، حتى لا يتحدثان معًا مرة أخرى. صمت الفصل كله، وغرقت البنتان في خجلهما، وتاهت الكلمات من على لسان شيراز، رغم أنها الوحيدة التي كانت تعرف الإجابة الصحيحة. وهكذا كان حالها في كل مرة تشعر فيها أنها اقترفت خطأً كبيرًا. بل إنها في هذه المرة نسيت في هول المباغتة أن تعتذر للمعلمة، التي سارعت في تنفيذ حكمها فنقلت ديالا إلى جوار ساشا وطلبت من أوريل أن يأتي ليجلس إلى جوار شيراز!

احمرت وجنتا شيراز واعتدلت في جلستها وأخفضت بصرها إلى دفترها وانصب جل اهتمامها على نقل أسماء الإشارة «هذا، هذه، هذان، هاتان، هؤلاء» من السبورة وكتابتها بطريقة صحيحة وبخط جميل. أحيانًا كانت تسترق النظر إلى دفتر أوريل فتلاحظ أن خطه سيئ للغاية. إنه يكتب الحروف كبيرة جدًا ولا يستطيع أن يضبط

رسم حرف الهاء. يستخدم الممحاة كثيرًا فتبدو ورقته مكرمشة وعليها فتات المطاط. فكرت شيراز في أنه ربما يتوجب عليها أن تعلمه كيف يكتب حرف الهاء. نعم. هو أنقذها من الولد الكبير وصارت الآن فردًا في العصابة. عليها إذن أن تعبر عن امتنانها العميق له بأن تعلمه كيف يكتب «هاء» جميلة، وكيف يضبط «الهمزة» على «الواو». ربما من الأفضل أن تدعوه إلى بيتها حتى تطمئن على كيفية كتابته سائر الحروف. بعدها سيتناولان كعكًا ويشربان كاكاو. لو كان أبوها موجودًا لطلبت منه أن يعد لهما كستناء محمصة. ترى هل يقبل أوريل أن يزورها في بيتها؟ شيراز لم يزرها أولاد من صفها من قبل، لكن اليوم صار لها أصدقاء. كانت دائمًا تراقبهم من بعيد وتقول إن البنات أفضل كثيرًا من الأولاد. فالأولاد يتقافزون طوال الوقت ويتصايحون بأصوات عالية مزعجة، ويدفعون البنات ويركلوهن. لكن أوريل لم يدفعها. كما أن الأولاد لا يهتمون أن تكون ملابسهم مرتبة ولا أن يكون شعرهم مسرحًا. يلعبون كثيرًا في الحديقة تحت الأمطار ولا يبالون أن تتلوث أحذيتهم وجواربهم بالوحل. الأولاد مقززون. الأولاد يصطادون الضفادع. لكن أوريل يبدو لطيفًا.

دق جرس الحصة. فسألت شيراز أوريل إن كان يحب أن يزورها في بيتها ليلعبا معًا. رد أوريل «لا شكرًا» وبرر إنه لا يحب أن يلعب مع الفتيات. إنهن لا يركضن بسرعة، يجعلن الفريق يخسر، يقعن على الأرض ويبكين كثيرًا. استغربت شيراز كثيرًا من كلام أوريل، إذ لم تكن

تعـرف غـير أن الفتيـات جميـلات ومهذبـات، أو هكـذا ينبغـي أن يكـن. أثارتهـا فكـرة أن الأولاد يرونهـن كائنـات غـير مسـلية بالمـرة. أفهمتـه شـيراز أنهـما لـن يركضـا ولـن يلعبـا الكـرة، فتسـاءل أوريـل سـاخرًا إن كانـت تتصـور أن يشـاركها اللعـب بالدمـى الغبيـة؟ اغتاظـت شـيراز لكنهـا حافظـت عـلى حسـن تهذيبهـا وأفهمتـه بهـدوء أن الدمـى ليسـت غبيـة لكنهـما لـن يلعبـا بهـا عـلى أيـة حـال؛ وإنمـا سـيلعبان لعبـة الحـروف المختبئـة. «لعبـة الحـروف المختبئـة، شـو هـاي؟» سـأل أوريـل باهتـمام كبـير. ابتسـمت شـيراز ابتسـامة المنتـصرات وأخبرتـه بفخـر إنهـا هـي التـي اخترعـت اللعبـة وكـررت عرضهـا عليـه، مؤكـدة أن «الشـوفير» يمكـن أن يحملهـما معًـا إلى بيتهـا بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي غـدًا لـو أن والـدا أوريـل يأذنـان، كـما يمكنـه أيضًـا أن يعيـده إلى بيتـه في موعـد العشـاء. أخبرهـا أوريـل بأنـه سـيحضر فقـط لـو أنهـا تنـوي فعـلًا أن تعلمـه لعبـة الحـروف المختبئـة التـي بـدت لـه مثـيرة. «أكيـد» قالـت شـيراز. ثـم متشـجعة واصلـت إثـارة فضولـه بذكـر حصانهـا الأشـقر. فصـاح متحفـزًا مندهشًـا: « كـمان أنـا عنـدي حصـان خشـب بركـب عليـه متـل الكاوبـوي وعنـدي مسدسـات. إنـت عنـدك مسدسـات؟» ردت شـيراز: «لا»، ثـم اسـتدركت أن لديهـا قطـار هديـة جدهـا في عيـد النويـل المـاضي، وقالـت إنهـا لم تتمكـن مـن تركيبـه، وإن أمهـا نصحتهـا بتركـه في علبتـه إلى أن يعـود أبوهـا مـن البلـد البعيـد فيركبـاه معًـا. وتسـاءلت إن كان أوريـل يمكـن أن يسـاعدها في تركيبـه وتشـغيله؟ التهـب الحـماس في عينـيّ أوريـل الـذي أخبرهـا أنـه سـاعد أخـاه الكبـير عـلى تركيـب قطـاره. وأكـد أن لا مشـكلة، وأنـه سـيعرف كيـف يتـصرف. أولًا سـيركب القضبـان. سـيبدأ

بالقطع المستقيمة. بعدها سيحدد المنحنيات والمحطات ثم... لم تفهم شيراز الخطة التي كان أوريل يشرحها لها بخصوص تركيب القطار، لكنها كانت واثقة أنه يعرف كيف سيتعامل مع المسألة بنجاح.

عادت شيراز إلى بيتها سعيدة بصديقها الجديد، حالمة بالغد الذي ستشبع فيه لعبًا. بالغت شيراز في عشمها بالمستقبل لدرجة أنها فكرت أن تطلب من أوريل أن يعلمها صيد الضفادع. الحكاية كانت تريد أن تمضي في سيرها المعلوم، لكن شيراز وجدت باب البيت مفتوحًا وحقائب كثيرة مصفوفة وحركة غير عادية وجلبة. ووجدت أمها وجدها وجدتها في انتظارها. قالوا إنهم جهزوا كل شيء وإنهم سيسافرون جميعًا إلى أبيها في البلد الذي لم تحفظ اسمه بعد. قالوا أشياء كثيرة لم تستوعبها، لكنها التقطت جمع المؤنث السالم في «صفارات، انفجارات، غارات» فكرت أن اسم الإشارة المناسب هو «هذه»، فهي الوحيدة في فصلها التي كانت تعرف أن اسم الإشارة المؤنث يأتي مع اللفظة المؤنثة ومع جمع المؤنث السالم ومع الجمع الآخر الذي لم تتدرب عليه كفاية. الآن ستسامحها المعلمة حقًا، وستقدر ثروتها اللغوية الجديدة. لكن الأم أكدت أن المعلمة أيضًا قد تسافر لأن المدرسة ستغلق إن عاجلًا أو آجلًا. فما يحدث في بيروت لن يلبث أن يصعد إلى الجبل وعليهم أن يسارعوا في الرحيل قبل قطع الطريق، وإغلاق الحدود. بدأت شيراز تدرك أن هولًا خطيرًا يحدث وتساءلت ماذا سيفعل أوريل؟ فالأمر يبدو أكبر من قدرة عصابته على التعامل، وأن «القتلة» هذه المرة قتلة مرعبة بلا

ترجمة مخففة إلى لهجات عربية أخرى. لم تلتقط أذنا شيراز الصغيرتان جدًا حينذاك كلمات أخرى تجمع جمعًا مؤنثًا سالمًا مثل اجتياحات، اغتيالات، ميليشيات، عصابات. أما جمع التكسير فلم تكن شيراز قد أتقنت أمثلة متنوعة منه بعد كمجازر، وحرائق، وكتائب.

مرت سنوات كثيرة كثيرة ظلت فيها الحكاية معلقة على الجبل، وكلما هبطت إلى الوادي سُفِكت.

مقعد بجوار النافذة

مثل نغمة بيانو شردت عن لحن مكتمل،

دقت الصافرة الناعمة مصحوبة بانطفاء الإشارة الضوئية المعلقة فوق المقعد الأمامي، معلنة وصول الطائرة إلى الارتفاع المطلوب، فسارع كلاهما إلى فك حزام أمانه. رفعا المسند الفاصل بين المقعدين، وكبسا الزر ليرجعا ظهريهما إلى الوراء، ثم عدّلا وضعيات جلوسهما ليضمنا أكبر قدر من الراحة. هي أرخت رأسها على صدره ولفت ذراعيها حول جذعه تتشبث به وتشمله. هو كور قبضته اليمنى تربصًا بمن يريدها بأذى، شارعًا جناحه الأيسر يضمها تحته لتقر وتستكين. بين لحظة وأخرى كانت تسري في جسدها رعدة، فتخبئ رأسها في قلبه. كان يعرف أن ذكرى التحامهما لا تزال تنبض داخلها فيحكم وثاقه حولها مقبّلًا أناملها. هدأت ونامت. بعد قليل أيقظها وطلب منها أن تنظر من النافذة التي على يسارها. خلب المشهد لبها. كانت الشمس تولد من وراء الأفق. تخرج برتقالتها رويدًا من البحر مبتلة بالحليب الأزرق، وتنشر جدائلها وردية وقانية لتمشطها وردات السحب، ثم تتهيأ لوضع إكليلها الذهبي الساطع، واستلام صولجانها وتصريف أمور مملكتها. يا له من شروق! «رحلة تنتهي ليبدأ عمر من التحليق». هكذا همس في أذنها حتى لا تحزن، إذ كانا عائدين من السباحة في عسل القمر. سبحا وغاصا وامتزجا وتعاهدا. مرت ساعات طويلة قلقة. راحت تفكر في سبل

تسعد بها من يحمي ظهرها ويهديها الأفق مهرًا، والشمس في عليائها خاتمًا، بعد أن صار يشتكي أنها لا تنظر إليه كفاية. أعيتها الحيل وأرقتها الحيرة، ثم غفت متعبة، تمّني نفسها أنها لا بد ستجد وسيلة. حين عاودت فتح عينيها كان حجاب النافذة يحجز وراءه الشمس والسحب، لكنه لا يزال يسمح بنور يتسرب من الكوة المتبقية. اعتدلت في جلستها وسألته غير مصدقة لماذا قد أغلق جزءًا من الأفق؟ ساءه أنها لا تحسن التدبير، وتتقن الإهمال. قال إن البراح المتبقي متاح للفرجة فقط، لا للرقص، وهدد بصكه تمامًا لو ظلت عيناها معلقتين بالسحب. انعقد لسانها فما استطاعت دفع التهم واغرورقت عيناها بالدموع.

ورغم أنها أدركت أن شمس الظهيرة قد بددت الظلال فانكشفت الحقيقة بيضاء، لكنها عاهدته أن تحاول من جديد إن منحها العفو والفرصة. مضى الوقت وهي تحاول دفع الخذلان، غير أن الشمس كانت تتهيأ للغروب. تناثرت أطياف الأحمر والأرجواني على الأفق الذي اشتعل بالبرق، وأطلقت عاصفة رعدية صرخات مدوية. ارتجفت روحها فأغلقت النافذة وراء الأمان الذي انسل ليبيت في حضن العتمة المتكاثفة كجبال من عفاريت. مرت ساعات طويلة حزينة. حين سمعت النغمة الناعمة من جديد رأت الإشارة تضيئ معلنة ضرورة ربط حزام الأمان. امتثلت وعدلت المقعد إلى الوضع العمودي، وأرخت يأسها عليه. فتحت النافذة عن آخرها تراقب المشاهد في أثناء هبوط الطائرة. ورغم نظراتها المبتلة، رأت شمسًا أخرى تولد من وراء الأفق. تنفست عميقًا،

ثـم شـدت عـلى يدهـا التـي تبـكي قابضـة عـلى وحدتهـا.

«رحلة تنتهي ليبدأ عمر من التحليق».

الوردة

«كان أجمل الرجال»

تقولها ببساطة من يتحدث عن بديهيات الحياة، وحين ترى دهشتي تكمل الجملة كمن يلقي بحتمية لا تقبل الجدل: «كان جميلًا، لأنه مستدير».

لم تكن هذه المرة الأولى التي أسمع فيها نظرياتها العجيبة في فرز الرجال. فقد كانت ترى مثلًا أن الرجل المستطيل هو أكثر الأنواع انتشارًا، وبعضهم يمتلك جاذبية عالية تمكنه من تحقيق أهدافه، وقد يبلغ الذروة فيصبح نجمًا في السينما، أو حتى في السماء. لكن التعامل معه يقتضي حساسية عالية من المرأة التي تتولاه. أما الرجل المربع فحضوره ثقيل، وبنظراته كثير من المكر فلا تشعر امرأته معه بالأمان، وإذا ما انطفأ فسيحرص على إطفاء كل من حوله، حتى لو لم يكن لهم ذنب فيما وصل إليه.

لم يعنِني قط أن أختبر صحة هذه النظريات في الواقع العملي، بقدر ما كنت أحب أن أتأمل ملامحها الصارمة تذوب وهي تسهب في تفاصيله، فأرى المرأة التي على أعتاب الخمسين ترجع سنوات إلى الوراء. تشرق العينان رغم الجفون المتهدلة، وتبتسم الشفتان الرفيعتان بكرم. وكلما تدفق حديثها عنه ما بين الهيام والفرحة، تفتحت في خديها ورود

تفـوح بعطـر آسر.

«الشـكل الدائـري هـو أكمـل الأشـكال وأجملهـا، وأقلهـا اسـتهلاكًا للفراغ، ولـذا فالطبيعة تعشـقه»

كان كل شيء فيه مستديرًا. رأسه الكبير اللامع كالصحراء، بطنه المنتفخة كالزير المستندة على توكة معدنية لحزام أسود يحفظها من الانهيار التام. أنف أفطس يتعلق أسفلها شارب قصير كشرشوبة طربوش فقدت معظم خيطانها، تدلت -على استحياء- على شفتين غليظتين. يؤطر عينيه الغائرتين بروازأسود مدور لنظارة طبية سميكة، لكنها -ولله الفضل والمنة- أبدًا لم تفلح في صد نظراته الحانية، فاخترقت زجاجها السميك ووقعت دومًا بهجة وبركة على كل ما أبصرت.

تعبت ريم من الدوران مع ابنتها الوحيدة ذات السنوات الأربع على مختلف الأنشطة الرياضية. وكانت التنافسية العالية التي كرستها الأمهات مع صغارهن كفيلة بنقل أي لعبة من مربع النشاط المحمود إلى مربع الحرب البغيضة. فلم يعد يسمع إلا أصوات الصراخ- صراخ المدربين والأمهات والأطفال، ولم يعد يعلو ملامح كل هؤلاء سوى التجهم والعبوس. حتى الشمس التي تطل على حمامات السباحة وملاعب الكرة كانت شمسًا عابسة.

«لـولا الدائـرة لمـا اسـتطاع الإنسـان أن يطـير. فالمحـركات الدائريـة هـي الوحيـدة القـادرة عـلى حمـل الإنسـان في السـماء، والانطـلاق بـه إلى الفضـاء»

من أجل التخفيف عن ابنتها التعيسة انتقت ريم نشاط الكورال، وتمنت أن تفلح ممارسة الغناء والاستماع إلى الموسيقى في تهدئة أعصابهما التي اشتعلت من التصادم مع الناس. وكما توقعت أصرت ابنتها كالعادة على أن تحضر معها الأم الجلسات الأولى، ووافق مستر كمال على وجودها رغم مخالفة ذلك للتعليمات، حرصًا على راحة البنت النفسية إلى أن تتآلف مع الموجودين. وهكذا جلست الأم وابنتها قبالته بين فريق الكورال، وبدأ مستر كمال توقيع النغمات على الإكسيليفون فصدحت أصوات الأطفال بالغناء والتعبير بإشارات اليدين وقسمات الوجه كما هي عادة الأطفال في شدوهم:

«إيد لوحدها ماتصفقش *** طير بجناح مكسور ما يطرش

جمّد قلبك قول ما تخافش *** تقدر على العالم وما فيه»

استولت الأغنية على ريم تمامًا، ولم تعلم وقتها أنها مأخوذة عن فيلم سينمائي من الموجة الشبابية التي اجتاحت السينما المصرية نهاية التسعينات، بداية زمنها الرديء الذي توقفت فيه عن متابعة الشاشة الفضية، وأي شاشة أخرى بخلاف شاشة الكمبيوتر للعمل. لكنها فيما بعد أكبرت المجهود الذي بذله مستر كمال في إعادة توزيعها لإضفاء روح أكثر حيوية ومرحًا لتناسب الصغار. وسرعان ما اندمجت ريم نفسها في الغناء والتصفيق مع الأطفال وهي تنظر لابنتها طوال الوقت مشجعة إياها على مشاركتها الضحك والإشارة باليد والتوقيع بالقدم على الأرض:

«كنا عيال لابسين كستور *** واتشعبط حلمنا في النور

شب ونط وعدا السور *** دوّر على حلمك تلاقيه»

بهجة انبثقت من داخل ريم لم تتذوق سكرها من مدة كبيرة وتمنت لو انتقلت عدوى الطمأنينة إلى ابنتها، وهذا ما حدث. إذ بدأت الصغيرة تحاول ملاحقة الكلمات التي لم تكن تعي منها إلا قليلًا، وتابعت الحركات بقلق حريص على ألا يخطئ أو يتأخر:

«لو صممت تكون هتكون *** جواك قدرة تبني الكون

وطنك حلمك فين ما تكون *** اقفل رمش القلب عليه»

بعد انقضاء الساعة توجهت نحو مستر كمال للمرة الأولى تتعرف عليه وتعرفه بابنتها. داعب الصغيرة التي كانت في عمر أحفاده وأخذ يسألها عن اسمها وهواياتها والأغاني التي تحفظها. علق على ملابسها المهندمة بألوانها الرقيقة المشرقة. لم ترد الصغيرة عليه بكلمة وظلت ملاصقة لأمها تجذب رأسها بين حين وآخر لتهمس في أذنها أنها تريد أن تغادر. حين بادرت الأم للاعتذار طلب منها ألا تفعل وأكد أنه يرى ابنتها متوقدة الذكاء وأنها سرعان ما ستنسجم مع أجواء النغم العذب. طلب من الصغيرة أن تأتي في المرة القادمة وقد رسمت البيت ذي الحديقة المطبوع على قميصها القطني على ألا تنسى أحواض الزهور التي في الشرفة ولا الشمس الضاحكة في الركن الأيمن. تهللت الفتاة لهذا «الواجب» وتحمست لإنجازه.

«تكاد الدائرة تشكل كل شيء في حياتنا دون أن نلقي لها بالًا»

في المرة التالية وصلت ريم وابنتها متأخرتين قليلًا وكان التدريب قد

بدأ بالفعل. عاشت الأم ساعة ونصف الساعة مع مجموعة منتقاة من الأغاني القديمة الضاحكة، فكانت تغني وتضحك مع ثلاثة إخوة يقلدون الأوبريت الشهير:

«إحنا التلاتة/ سكر نباتا/ إحنا التلاتة حاجة شرباتاتا/ بالإنسانية مش بالتباتة/ إحنا التلاتة إحنا التلاتة»

تساءلت ريم كيف لم يخطر ببالها قط أن تغني لطفلتها مثل تلك الأغاني وهي التي أعيتها الحيل أن تجد أغنية مناسبة لهدهدة طفلتها حين كانت مولودة لا تزال بعيدًا عن «دبح جوزين الحمام»؟ فما كان منها إلا اللجوء للأغاني الأجنبية التي تعرفها. تعجبت كيف انزوى هذا التراث اللطيف إلى ركن مغبر في الذاكرة لم تفكر أن تعيد الولوج فيه سوى الآن؟ كيف يكون للمصريين هذه المُلح وتعلو وجوههم الجهامة وقد أحكم التوتر المقيت شباكه حولهم لا يكاد يفلتهم؟ لم يفتها أن مستر كمال دائمًا ما يغير في التوزيع الموسيقي للأغاني لتناسب طبقات أصوات الأطفال. لم يفتها أيضًا كيف يهتم لأمرهم، كيف يفهمهم من نظرة عين، كيف يفهمونه هم ورغم ذلك يشاكسونه، وكيف يبادلهم هو شكسهم بشكس مماثل فتمتلئ حجرة الموسيقى الضيقة بضحكات بريئة تغسل حزن القلوب الكبيرة والصغيرة. كانت ريم ترتفع مع النغمات إلى رُبى مخضرة ترتد فيها طفلة تسلم ساقيها الصغيرتين للريح، تسابق طيارات الورق الملونة فتسبقها وتعلوها، تقضم السحاب المنفوش، ثم تنزلق على قوس قزح لتعود إلى ابنتها الغاضبة المكشرة. تسائلها في نبرة هادئة عن سر

غضبها فلا ترد عليها. فإذا بمستر كمال يعرف أنها زعلانة لأنه لم يسألها بعد عن الرسم الذي طلبه منها. تتعجب ريم وهي ترى ابنتها تخرج الورقة من حقيبتها الصغيرة وتعطيها لمستر كمال الذي يبدي إعجابه برسم البنت بالطريقة المبالغة المألوفة في التخاطب مع الأطفال. «الله على الجمال، يااااه». تفرح البنت وتلتمع عينا الأم رجاء أن تكون قد وجدت ضالتها أخيرًا، وعرفت لابنتها الصامتة مدخلًا. بدأت البنت تشرح له ما فعلت وأخرجت قميصها القطني من الحقيبة لتؤكد له مضاهاة رسمها بالأصل. «جمييييييل، الله، الله، يا سلام على الرسم الجميل» ثم نظر لريم متصنعًا خطاب الأمر «من فضلك يا مامي، قومي هاتي كراسة رسم وتعالي» ابتسمت في حرج، وأكدت إنها لا تريد لابنتها أن تطغى على وقت الأطفال الآخرين، وأخبرته أنها ستشترك لابنتها في نشاط الرسم. لكنه أصر: «اسمعي الكلام يا مامي ما تضيعيش وقتنا». توافدت مجموعات جديدة من الأطفال لتحضر مع مستر كمال الحصة التالية. لكن البنت الصغيرة رفضت المغادرة فحملها مستر كمال لتتربع على حِجره الوثير مثل أميرة صغيرة.

«ليس للدائرة أطراف حادة، ولذلك فإنها لا تنكسر بسهولة، وإذا اصطدمت بشيء فإنها لا تؤذيه مثلما تفعل الأشكال الأخرى»

غادرت الأم مطمئنة لتلبي الطلب ثم عادت لتجد ابنتها واقفة على الكرسي المجاور لأورج مستر كمال، ممسكة بعصاه القصيرة، تلعب دور قائد فرقة الموسيقى. أدهشها أن الأطفال امتثلوا لقيادتها كما أمرهم

معلمهم. فكانوا يرفعون أصواتهم ويخفضونها وفق إشاراتها. وحين تنظر نحوه ملتمسة المدد، كان يردها مقررًا بلطف حازم أن عليها إتقان دورها كقائد للفرقة بينما يتولى هو توقيع النغمات على الأورج أو الإكسليفون. بعد انتهاء الحصة صفقت الأم بحماسة وطارت ابنتها من فوق الكرسي لتستقر في حضنها تحكي وتحكي وتحكي بصوت عالٍ تتداخل فيه جملها القصيرة التي لا تتم بضحكاتها المجلجلة. قالت الأم علينا أن نذهب الآن. رفضت البنت بإصرار. طلب مستر كمال من الأم ورقة من كراسة الرسم. فتحت الكراسة وناولته إياها. جلست البنت إلى جواره تتابع ما يخط على الورقة في اندهاش متوثب. قلب الورقة وأخذ يواصل التخطيط على ورقة جديدة. لم يكن تشوف الأم يقل عن لهفة ابنتها بحال. حين انتهى ناول الأم ورقة والابنة ورقة قائلًا إن «الواجب» هذه المرة سيكون تلوين ما خط لها بالقلم الرصاص. تمعنت الأم في الورقة فإذا به رسم وردة بلدي ندية تفتحت عن كمها منذ قليل يكاد عبيرها يعبق الغرفة. سرحت الأم في الوردة. ولجتها وتوغلت فيها. جاست ديارًا وأمكنة. أخذتها عبر مفازات وبراري وسهوب وبحار إلى قلب العالم النابض. ضوّت على مهل ثم ارتدت. أشارت إلى الندى المرسوم على الأوراق وأبدت إكبارها لفنه الجميل. قال: أنا رسمت الوردة فقط. حبات الندى هذه هي دموعك التي فرت لتلثم خد الوردة. رمقته بامتنان ريثما تلملم بنتها الأوراق والأقلام. قال لها والحنين يغلف صوته الرخيم: «واضح أنكما تعانيان الفقد. أنا أيضًا افتقدتك منذ زمان بعيد. التقينا قبل الأوان ثم افترقنا. سعيد أن ألتقي كوكبينا من جديد» تنهدت وقالت بصوت مرتعش: «كلنا في فوت

دائم، لكنها هي -وأشارت للصغيرة- رغم بؤسها علمتني أن أعانق اللحظة قبل أن تنفلت. جميل أن رأيتك بعد الأوان. إلى لقاء». رد عليها بشجن المودع: «إلى لقاء».

«الدائرة هي الصفر، وهي النقطة»

حين وصلت ريم إلى البيت تركت ابنتها تلون الوردة بينما تحضر لها الغداء. بعد قليل دخلت على البنت حاملة إليها الطعام. وجدتها قد لونت الوردة بالأحمر الفاقع. لم يكن التلوين منتظمًا داخل الخط الخارجي للرسم وإنما في خطوط قوية متوالية طمست تفاصيل الصورة كعادة الصغار غير المدربين على التلوين. بعد أن تناولت البنت عدة ملاعق من صحنها جرت نحو الرسم مرة أخرى وبلمح البصر مزقته. قالت الصغيرة: «مش حلوة الوردة يا مامي. هارسملك أنا واحدة أحلى». ازدردت الأم ريقها ثم قالت بهدوء بعد أن حاولت أن تتمالك نفسها من المفاجأة: «طيب يا حبيبتي ارسمي لي إنت واحدة على ذوقك ولونها بالألوان اللي تعجبك».

رفضت البنت أن تعود إلى دروس الكورال ثانية، فعادت ريم إلى الدوران وراء أنشطة النادي المختلفة علّ ابنتها جنة تقبل الاستمرار في واحد منها فتقر وتسعد وتكون صداقات. وقد حدث أن التقيتها في ساحة الرماية بعد أن دخلت ابنتها مع ابنتي في فريق «القوس والسهم»، وصارتا صديقتين أثيرتين منذ ذلك الوقت، وصارت ريم صديقة محببة لي أنا أيضًا. لأنني رأيتها امرأة من طراز خاص. تصمت كثيرًا، ثم تتدفق دفعة واحدة بآراء وأفكار ومشاعر نادرًا أن تجدها عند من سواها. لا تتحمس

إلا إلى ما يعجبها حقًا، وإذا حكت عن شيء حكت بنفس اللهفة الممتزجة بفرحة طفلة تكتشف العالم لأول مرة. ولطالما حدثني عن مستر كمال وجماله ودائريته. ولطالما أكبرت هذا الوصل الفريد، وأعجبت بفيوض الجمال تمسها فتحييها بمجرد أن يخطر ذكره على بالها. ولأن العلاقة بيننا صارت تسمح تساءلتُ هذه المرة: «كل هذا رغم أنك لم تريه من ساعتها؟» ردت بثقة: «نحن على موعد لكن لم يؤذن باللقاء بعد». تشجعتُ وطلبتُ منها أن تريني الوردة. قالت بارتباك وقد توردت وجنتاها: «أي وردة؟ لقد مزقت جنّة الرسم، كما رويت لك». أردفتُ بإصرار وقح نادرًا ما أختبره: «لا أعني تلك الوردة. بل الوردة الأخرى التي لم تمزقها جنة. وردتك أنت المرسومة على الورقة الأخرى. أمن الممكن أن تحضريها معك في المرة القادمة وتريها لي؟»

في الواقع، هي لم تجعلني أنتظر للمرة التالية لأنها أخرجتها من قلب حقيبتها بعد أن أفضت إليّ أنها تحملها معها أينما ذهبت وحلت. وحين رأيت الورقة أُخذتُ، وانخطفت في الندى المرسوم على خد الوردة. فلما سألتها عنه وأنا أحاول لمسه قالت لي: إنما هذه دموعك أنت فرّت لتلثم خد الوردة.

ضربت البرودة أوصالي وسرت في بدني رجفة الرؤية.

زيارة إلى طبيب الأسنان

كان على البكاء أن ينتظر،

ومعه محاولة لملمة الشظايا التي تبعثرت هنا وهناك. الدهشة فقط هي كل ما تمكنت من ارتدائه فوق ملابسها السميكة. لقد أفرغ في صدرها رصاص كلماته ومضى، فلكأنه خرج منها وصفق وراءه باب الرجوع. تصدع داخلها، ثم سرعان ما تهشم كزجاج تكسر آلاف القطع الصغيرة الجريحة الجارحة. نزفت روحها على الأرض ومضت للموعد خاوية. لم تعرف تمامًا لِمَ هَبت عليها رياحه العاتية وتركتها عجيزة نخل وحيدة في صحراء قاحلة. غير أن التزامها بالموعد المقرر للكشف على أسنان ابنتها لم يسمح لها أن تنكفئ على نفسها وتغلق صومعتها لترتحل وراء ما حدث، وتبعثر الوقت في اجترار مشاهد الفوران المرة بعد الأخرى.

كانت فريدة ذات السنوات الخمس متوجسة من زيارة طبيب الأسنان، فحاولت أن تلفظ القلق الذي يلوكها على هيئة أسئلة ملأت بها فضاء السيارة عن السبب الذي من أجله يذهبان، وعن الأدوات التي سيستخدمها الطبيب، وعن المكافأة التي ستحصل عليها إن هي تصرفت كفتاة شجاعة ومهذبة، وهل من فرصة للذهاب إلى الملاهي، وهل ستأكل طعامًا خاصًا، وهل من الممكن الحصول الآن على العصير،

وهل كان من الأفضل أن تحضر معها فرشاة الأسنان لتريها للطبيب، وهل سيمران على جدتها بعد انتهاء الزيارة. على غير العادة لم تستشعر الأم ضيقًا من الأسئلة التي هطلت عليها عصر ذلك اليوم الشتوي البارد، بل اعتبرتها طوقًا يمتد إليها كي لا تفقد وعيها فوق بحيرة الجليد التي أخذت تتمدد داخلها وتسبب لها رعدة من آن لآخر حتى اضطرتها أن تحكم قبضتها على عجلة القيادة كي لا تفلتها.

أعجبت البنت في العيادة بالركن الذي أثث خصيصًا لانتظار الأطفال، لكنها لم تمكث فيه طويلًا إذ حان دورها بسرعة. كانت الموجة الباردة قد أجبرت معظم المرضى على تأجيل حجوزاتهم لمواعيد أخرى. تقدمت البنت خطوتين ثم تراجعت خطوات محاولة بعناد طفولي أن تخفي مخاوفها من المجهول الذي ضربت لها أمها موعدًا معه. وبين المناقشات المنطقية، والوعود بالمكافآت، والنظرات المنذرة تعالى الصراخ والانهيار في الأرض الذي صاحب تفجر ينابيع الدموع من عيني الصغيرة، ما استدعى خروج الطبيب من غرفته ليرى بنفسه سبب كل الجلبة. «أهلًا دكتور حسن. متأسفين خالص بس فريدة متوترة وخايفة. أنا كنت إديت حضرتك فكرة إن لها خبرة مش لطيفة مع دكاترة الأسنان عشان خلعت ضرس قبل كدا وركبت مكانه بديل بلاتين. الدكتور كان سريع وعنيف» قالت الأم بارتباك المعتذر. بهدوئه الوقور توجه الدكتور حسن إلى فريدة وجلس القرفصاء إلى جوارها ثم سألها مستنكرًا بصوته الرخيم: «فيه بنت حلوة تبهدل نفسها بالشكل دا؟» بعدها نهض وقال

بحسم: «أنا مستنيكي في أودتي لو تحبي تشوفي الكرسي العجيب» نقلت فريدة نظرها بينه وبين أمها مندهشة بعد أن توقفت عن الانتحاب. دفعها فضولها إلى النهوض. لحقت بالدكتور حسن الذي كان في طريقه إلى حجرة الكشف متباطئًا، ممهلًا إياها بعض الوقت لتلحق به.

وعندما شعر بها خلفه استدار نصف استدارة وابتسم بلطف ثم مد إليها يده. كانت ثقة غامضة بدأت تتسرب إليها فوضعت يدها في قبضته وتركته يقودها إلى غرفة الكشف. تراجعت خطوات حين أشار لها لتجلس على الكرسي المجهز، لكنه لم يفلت يدها وقال «خلليني أفرجك على الكرسي العجيب». نظرت إلى أمها طالبة المدد، فأومأت مشجعة. أجلسها على الكرسي وشرح لها أجزاءه المختلفة: المصباح الكاشف، الحوض، رشاش المياه، الشافط. أطلت على طاولة الأدوات التي تحوي السرنجات والإبر المدببة مختلفة الأطوال فخافت من منظرها. «امسكيها» قال بحسم. تأملتها. مستها سريعًا، ثم خبأت يدها وراء ظهرها. حين أخرج الحفارة بدأت الدموع تطفر من جديد. أمهلها بعض الوقت. وحين هدأت وضع الحفارة في يدها قابضًا عليها برفق. مس الدواسة الكهربية بقدمه خفيفًا فدارت الحفارة سريعًا مطلقة أزيزها المعدني المزعج. أخذت فريدة تحاول أن تفلتها وصارت تلوي جسدها وتحرك قدميها يمينًا ويسارًا. توقف إلى أن تهدأ. ثم عاود الكرة، يمس الدواسة خفيفًا بقدمه ثم يرفعها، تدور الحفارة سريعًا ثم تتوقف، إلى أن اعتادت فريدة أزيز الحفارة، وسريان ذبذباتها في جسدها تدغدغه.

راقبت الأم فعل الطبيب باندهاش وتفهم وإعجاب. أدركت أن هذا هو فعل الكبار. الرجال الكبار. لا يفلتون يدك وأنت تواجهين كوابيسك. ابتسمت ابتسامة أوجعتها بعد أن أيقنت أن لا مفر من اتخاذ القرار الصعب. لن تبقي مع رجل صغير. قطع أفكارها صوت الدكتور حسن وهو يسأل فريدة عن لون المنديل الذي تحب أن يفرده على ملابسها حتى لا تبتل. اللون الوردي طبعًا. بعدها حرك قدمي فريدة من الجنب وأرخاهما على الكرسي لتتخذ وضع الاستلقاء. بضغطات محسوبة على دواسة القدم أرجع ظهر الكرسي إلى الوراء، ثم رفعه ببطء مدروس إلى أن اقتربت منه للدرجة التي تسمح له بفحصها. يا الله! أي أنثى تقاوم أن تكون في مركز دائرة الاحتواء؟ أن ترتد طفلة صغيرة تسلم قيادها لسندباد يخوض بحار المجهول بثقة تفيض من عينين حنونتين؟ أي أميرة صغيرة لا تريد لأميرها أن يقترب حيث لم يقترب أحد، وأن يراها، أن يراها حقًا كما لم يرها أحد من قبل؟ ظلت الأم تراقب الموقف مشفقة على ابنتها وعلى نفسها وعلى كل نساء الأرض. سألته الأم: «شكل الفك السفلي يقلق؟» رد الدكتور حسن مطمئنًا: «حالة فريدة فعلًا. ما بنشوفهاش كتير. لكن دا الطبيعي أصلًا». كانت قواطع فريدة قد انشقت في الفك السفلي، وبدأت تنمو قبل أن تتلخلخ أسنانها اللبنية، فصار شكلها ملفتًا. لكن الطبيب أكد أن هذه الحالة «هي الأصل». أوضح أن شكل الفك البشري اختلف عبر الزمن نظرًا لاعتياد الناس على الطعام اللين، تمامًا كما ضعفت الأنياب والضروس عبر الأجيال. فريدة ليست في حاجة لأي تدخلات لتعديل مسارها الطبيعي. سيتكفل

الوقت بكل شيء. أضاف أنه يرى بوادر تسوس ينخر في ضرسها، لذا سينظفه ويحشوه قبل أن يستشري السوس ويعطب السن. سيضطر أن يستخدم الحفارة. حين انتهى رفع المنديل، وأعاد الكرسي إلى الوضع القائم، وطلب من فريدة النزول. اضطربت فريدة: «خلاص كدا؟ أنا مش عايزة أمشي. أنا عايزة أفضل معاك. أنا بحبك أوي». لمعت دمعة في طرف عين الدكتور حسن فسارع بالخروج من الحجرة، ثم عاد بعلبة عصير أعطاها لفريدة وطبع على خدها قبلة وقال: «إنتي أحلى بنت جات لي العيادة، هافضل فاكرك علطول وهاحكي عنك لكل الأطفال اللي بيجولي وهما خايفين. لو عندك مشكلة في أي وقت تعالي». طبع قبلة أخرى. أخذتها الأم من يدها وخرجتا وأغلقتا الباب.

في طريق الخروج من العيادة مرت فريدة على ركن انتظار الأطفال فوجدت بنتان تلعبان في انتظار أن يحين عليهما الدور. قالت بغيظ: «هما البنات دول هيدخلوا برضه عند الدكتور حسن؟» ردت أمها التي فهمت مغزى السؤال: «أيوه يا حبيبتي. وهو هيحكي لهم عن شجاعتك». صمتت فريدة صمت الحسرة. بعد أن قطعتا الشطر الأكبر من طريق العودة بالسيارة قالت إنها ستحكي لأصحابها في المدرسة كيف كانت شجاعة عند صديقها طبيب الأسنان، وكيف أمسكت الحفارة والأدوات المخيفة بيدها. فتحت علبة العصير، وشربتها بتلذذ وكأنها لم تشرب مثله من قبل. بعد صمت لم يطل قررت فريدة أنها ستغسل أسنانها بمجرد أن يصلا إلى البيت، فهي لا تريد أن يهاجم السوس أسنانها مرة

أخرى. أكدت الأم على صواب الفعل المزمع، لكنها سألت بفضول «هو إنتي مش عايزة تروحي تاني لدكتور حسن؟» «أنا حبيت دكتور حسن أوي يا مامي» أكدت فريدة، «لكن لازم أخلي بالي من نفسي. أنا مش هروح له تاني عشان ما يوجعنيش». ما أجملك يا فريدة، وما أحكمك. يا ليت كل نساء الأرض في حكمتك!

بياض

مـرت الليلـة كسـابقاتها، لا يغيـب عنهـا الأرق منـذ قـررت التوقـف عـن تنـاول خلطـة المهدئـات، ولا يسـتجيب النـوم لمحايلاتهـا منـذ شـهور رغـم أنهـا جربـت كل شيء تقريبًـا: المـشي، القـراءة، الصـلاة، الحـمام الدافـئ الممـزوج بالزيـوت العطريـة، الموسـيقى الهادئـة. لم يفلـح شيء في إعفائهـا مـن المواجهـة. كان الفجـر قـد أوشـك عـلى البـزوغ، لـذا قامـت نـون وفتحـت اللابتـوب وكتبـت:

بين رجاء الملهوف ووجل المترقب،

شـق ظـلام بطانتهـا الحريريـة برعـم منـير. وئيـد في حركتـه لكنـه لا يقـر، مكـين رغـم ظاهـر ضعفـه، قديـر أن يكتـب معهـا أيامهـا المسـتقبلة، واعـد أن يزهـر في روحهـا شـجيرات فـل فواحـة الأريـج.

لا يـا نـون، هـذا كثـير، قلـت. أفصحـي يـا نـون، فـما مـن قـارئ سـيفهم مـا تقصديـن. ردت نـون بـأن الـكلام واضـح، وأن القـارئ سـيفهم عنهـا إذا مـا انتقـل إلى السـطور التاليـة. لم أقتنـع برأيهـا، ولثقتهـا العظيمـة فيّ أشرت عليهـا بوصـف حـال البطلـة مبـاشرة. اسـتنكرت نـون أن تبـدأ قصتهـا بدايـة غـير شـاعرية بالمـرة، وأن تسـطر بشـكل تقريـري أن بطلتهـا اكتشـفت أنهـا حامـل. تفهمـتُ مـا يعتمـل في نفـس نـون مـن صراع يصيـب أي كاتـب يخطـو أولى خطواتـه عـلى درب الإبـداع، ويريـد أن يثبـت للقـراء أنـه يمتلـك

ناصية البيان. طيب، وماذا بعد؟ سألتها. تابعت:

طوت أنحاء نفسها على فرحتها في حنو، ونسقت طموحها بعناية في حقيبة سفرها، ثم طارت إلى مدينة العنادل الوادعة في لحافها الليلكي على الذراع الأيسر من نهر الراين.

قلت: جميل، لكننا لم نعرف المدينة التي ستتوجه البطلة إليها. ردت نون أنها جاءت بأسمائها المشهورة مدينة الليلك، ومدينة العنادل. قلت: يا نون! يا نون! اذكري ببساطة أن بطلتك مسافرة إلى مدينة جيرميرزهايم بألمانيا. الغموض غير المبرر ليس من صفات الأدب الجميل، وليس مطلوبًا من القارئ أن يحل الألغاز. تظلمين نفسك وبطلتك يا نون إن لم تفعلي. ولدهشتي سجلت نون ملاحظتي هذه المرة بلا مقاومة. فسألتها طيب، وماذا بعد؟ فتابعت:

تحط رحالها شهرًا كاملًا في تلك المدينة الحدودية التي تزاحمت الحياة فيها حول حصن يجمع تكوينه بين الأسوار العنيدة والأقبية المميزة للطراز الروماني. إلا أن أركان الحصن كانت قد تمددت وتبعثرت في مختلف الاتجاهات بحسب هجمات الأعداء التي توالت، ومعاهدات الصلح التي أبرمت، عدلًا أو رغمًا، مع دوران الأيام وتقلب الدول. بعد تجرع الهزيمة المنكرة في الحرب الأخيرة توافق أهل البلاد على تحويل الحصن المنيع إلى جامعة لدراسة ما أبدعت القرائح من فنون الألسن شفاهة وكتابة؛ فإذا بالحصن الذي كان يصد أعداء الأمس بذخيرة من رصاص حارق، يؤلف بينهم اليوم بفتح بوابات العقول على مصاريعها،

فتتناوش الأفكار في حرية، وتقفز فوق سدود اللغات المحصنة فتجعلها الترجمة معابر للقيا، ولوصال حبال الود.

يا لطيف اللطف يا الله، صِحْت. قدراتك اللغوية فائقة يا نون، لكن الكتابة ليست ساحة لاستعراض العضلات البلاغية. قصتك جميلة، وليست في حاجة إلى كل هذا التقعر في السرد الذي قد يثقل على قارئك ويفقدك إياه. الأسلوب الجميل هو الأسلوب البسيط النابع من القلب بلا تكلف. سكَتَتْ محبطة. كنت أعلم أني أضغط على أعصابها، لكن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق النتيجة المرجوة. وقبل أن أفقدها لليأس تمامًا، سألتها ما رأيك لو نبدأ من جديد؟ كادت نون تبكي. لكنها تماسكت،

ثم تنفست عميقًا وبدأت كالتالي:

يقول المثل الألماني: «بثالِثتِها تطيبُ الأشياء»،

وهكذا قُبِلَ طلب نوران للالتحاق بالدورة الشتوية للترجمة الفورية بين العربية والألمانية الذي سينعقد في مدينة جيرميرزهايم بألمانيا، ووافق مجلس القسم على طلب الإجازة الدراسية، وتحول شريط الاختبار المنزلي من اللون الأبيض إلى الأرجواني معلنًا أنها أخيرًا ستصير أمًا.

مرت أسابيع الإجراءات الروتينية بسلام، حتى إن موافقة الجهات الأمنية على السفر وصلت قبل السفر فعلًا، وهو أمر نادر الحدوث، ورتبت أحوال العمل للفترة التي ستتغيبها على خير ما يرام، ورحب

زوجها وأمها وطبيبها بالرحلة مطمئنين على حالتها الصحية المستقرة.

طوت أنحاء نفسها على فرحتها في حنو، ونسقت طموحها بعناية في حقيبة سفرها ثم طارت إلى مدينة العنادل الوادعة في لحافها الليلكي على الذراع الأيسر من نهر الراين. حين وصلت إلى جيرميرزهايم كانت المدينة قد خلت من معظم ساكنيها. إذ كان غالبيتهم من طلاب الجامعة التي دخلت في سبات العطلة بعد انتهاء الفصل الدراسي الشتوي، ولن تفتح قاعاتها طوال شهر مارس إلا إلى طلاب الدراسات العليا الوافدين من العالم العربي للتدرب على مهارات الترجمة الفورية بأنواعها. ورغم تململ معظم المشاركين من غياب مظاهر الحياة المتوقعة، فإن نوران استملحت ذلك السكون الأبيض البديع. فمن ذا الذي يحالفه الحظ أن يحصل على مدينة بأكملها خالية تمامًا إلا من النفر القليل الذي يدير شؤونها؟ لقد بدا الموقف وكأن كل شيء قد صار ملكًا لها وحدها: الشوراع، والمواصلات، والجامعة، والأسواق، والبيوت. بل إنها سعدت كثيرًا بتوزع المشاركين في الدورة على منازل متباعدة في المدينة الصغيرة التي تكاد تشبه القرى لولا وجود الجامعة التي تحمل اسم «يوهانيس جوتينبيرج» شش، مخترع الطباعة، وتستوطن ذلك الحصن الرابض في المنطقة التي كانت تفصل الإمبراطورية الرومانية عن جرمانيا. خلب لب نوران فكرة أن المدينة شكلت عبر تاريخها القديم حدًا فاصلًا بين طرفين متحاربين، خصوصًا بين الألمان والفرنسيين. وأن الألمان قرروا- بعد الحرب العالمية الثانية- تحويل الحصن والمدينة إلى معبر تتلاقى عنده

الثقافات المختلفة من خلال تشييد أكبر وأهم كلية تدرس الترجمة في ألمانيا كلها. أليس عبقريًا أن يتحول حد الفصل إلى معبر وصل؟

لم تبال نوران أن الغرفة التي ستقيم فيها كانت في أبعد بيت للطلاب عن الجامعة، وسعدت بالتعرف على رفيقتيها في السكن الصينية «مو»، والإيطالية «كاتارينا» اللتين لم تسافرا إلى بلديهما في عطلة الشتاء توفيرًا للنفقات. وعرفت لاحقًا أن موظفي الجامعة يطلقون عليهن لقب الثلاثي المحافظ. فكن يضحكن من التسمية معلنات بأن الدين للقلب وجيرمرزهايم للجميع. يصحو الثلاثي مع ولادة نور الصباح، يفطرن معًا، ثم تنطلق كل واحدة إلى وجهتها.

ورغم معرفتي أن مو وكاتارينا ستقومان بإهداء نون قبل عودتها إلى القاهرة صندوقًا صغيرًا يحوي شامبو ولوشن وزيت للأطفال من ماركة ألمانية ممتازة لا تتوافر في بلدانهن، فإني أقاطع استرسال نون في الكتابة وأسأل إن كانت كل تلك التفاصيل ضرورية للقصة؟ ترتبك قليلًا ثم تقول، إنها جميعًا تشكل المسرح الذي سيدور عليه الحدث الوحيد. أنصت باهتمام، ثم أذكرها بلطف أن التكثيف من أهم سمات القصة القصيرة، خصوصًا لو كانت أحداثها ناعمة مثل قصتها. يطول صمت نون، ثم تقوم إلى غرفة الطعام حيث وضعت الأكياس على الطاولة. وأخذت تطمئن إلى أن كل كيس يحوي اللوازم المطلوبة من ملابس جديدة، وألعاب، وأدوات رسم. ثم حلا لها أن تقص بطاقات صغيرة ملونة تحمل اسم كل طفل وألصقت عليها صورته معها من الألبوم

الـذي كانـت تجمعـه كلـما زارتهـم في الـدار. ظننـت أنهـا ستسـتغرق في إنجاز المهمـة التـي اخترعتهـا للتـو، وسـتنسى أمـر الكتابـة، لكنهـا عـادت وداهمتنـي بالسـؤال: ومـاذا لـو أن بنيـة القصـة ذاتهـا تريـد أن تـدل عـلى مغـزى مـا؟ احترمـت رغبتهـا في المنـاورة، وقلـت لهـا: إذن لأسـمع وأرى. فتابعـت:

تعاملـت نـوران مـع الحيـاة وكأنهـا تعيـش أيامًـا في حلـم لـه لـون الليلـك ورائحتـه. تهتـم بطعامهـا مثلـما هـو جديـر بسـيدة تحمـل سـنبلة في أسـبوعها الثامـن عـشر، تسـعد بالمـشي اليومـي مـن الجامعـة وإليهـا مثـل فراشـة تراقـص زهرتهـا قبـل أن يلفهـا رحيـق المحبـة. تمـر في الطريـق عـلى الإشـارة الضوئيـة التـي تعلـن أن درجـة الحـرارة صفـر، تبتسـم وتربـت عليهـا في خشـوع مـن يتنعـم بدفئـه الخـاص. تتحـين لحظات تنسـل فيهـا إلى الحمام لتتابـع في مرآتـه تغـير خرائـط طلتهـا وتمـام امتـلاء دوراناتهـا. تـدرس بحـماس وتوقـد مـن أقسـم أن يحـدث فارقًـا في هـذا العـالم ولم ينكـسر.

في صبـاح ربيعـي أخـير، قبـل العـودة لبلادهـا، قـررت الطبيعـة أن تفتـح لهـا بوابـات مخيالهـا عـلى امتـداد الأفـق، وأن تعمدهـا ابنـة صالحـة، وأن تدللهـا فتحسـن التدليـل. سـتهدي حواسـها التـي خبـت قـدرة جديـدة عـلى التقـاط الإشـارات بـدلًا مـن تلـك التـي فقدتهـا مـن طـول مـا رزحـت تحـت السـحب السـوداء الجاثمـة عـلى مدينتهـا القاهـرة. ستغسـل روحهـا بالـبرد، وتنقيهـا مـن الشـوائب ثـم سـتصقلها فيعـود لهـا ألقهـا الأخـاذ. ثـم سـتفضي لهـا بـسر العطـاء السـمح الكريـم. وهكـذا تـوارت شـمس الربيـع الدافئـة وراء صفـوف مـن الديمـات تكاثفـت فغطـت المـدى، الصـف وراء الآخـر،

كزهـرات قطـن انبثقـت للتـو مـن أكمامهـا، وتناثـرت في الأرجـاء انتظـارًا للنديـف، ثـم تسـاقط البيـاض فاكتسـت الأرض بصفـاء شـاهق.

لم أجـرؤ عـلى مقاطعـة نـون، رغـم أني فهمـت الآن أنهـا تتعمـد أن تحتجـب وراء كلماتهـا، ولـن تفصـح عـن شيء.

طالـت وقفـة نـوران عـلى تلـك الحـال. شربـت عيناهـا المنظـر حتـى ثملتـا فأغمضتاهـما وفتحـت ذراعيهـا عاليًـا تعانـق الهـواء وتسـتبقيه بـين أعطافهـا. صـاروا واحـدًا: هـي والهـواء والبيـاض. ومضـة تخللتهـا رشـيقة فـما شـعرت بهـا. تكـرر المـس الخاطـف فانتبهـت أن نبضـة مـا تعبرهـا عـلى اسـتحياء. بعـد لحظـات سـكون عاودهـا الخفقـان في هـوادة. أجفلـت لوهلـة ثـم أدركـت أنـه ينبـض في داخلهـا. لقـد بـدأ جنينهـا يركلهـا. شـوقه يطـرق بوابـات عالمهـا. ربتـت مـكان الطرقـات. عـاود الـركلات. أذهلتهـما اللعبـة. صـارت تطـرق فـيركل، يرفـس فتربـت. خبطـت خبطـات متواليـة. اسـتكان قليـلًا ثـم ضرب ضربـات خفيفـة تماثـل إيقـاع خبطاتهـا اللينـة. أطلقـت سراح ضحـكات قصـيرة متواتـرة، وشـهقات متقطعـة لم تتوقـف حتـى انسـال الندى مـن عينيهـا. وصـارت تلهـج بالحمـد تـارة، وتغنـي تـارة أخـرى. ثـم اسـتلقت بظهرهـا عـلى الفـراش الثلجـي بعـد أن ملأتهـا السـعادة عـن آخرهـا ففاضـت عـن إنائهـا وتمازجـت مـع البيـاض الصـافي. أخـذت نـوران تتدحـرج برفـق يمينًـا ويسـارًا وهـي غـير متيقنـة -في التحامهـا بالأبيـض- إن كانـت الحيـاة تنسـكب مـن الطبيعـة إلى داخلهـا، أم تنضـح مـن داخلهـا إلى خارجهـا. هـل يمكـن لحـيّ أن يكـون أكـثر حيـاة مـما كانـت هـي عليـه في تلـك اللحظـات

المذهلة؟

دق جرس المنبه معلنًا انتهاء وقت الكتابة في تلك الساعات الأولى من اليوم، فتوجهت نون لتوقظ زوجها وتنسق له ملابس مناسبة للاجتماع المهم، حيث سيلتقي رئيس الوزراء في الظهيرة. ثم تتأهب هي نفسها للذهاب إلى عملها في المكتب الإعلامي للسفارة إذ لا يزال عليها أن تراجع ما أنجزه فريق الترجمة بالأمس قبل نشره على الموقع الرسمي.

تأكدتُ أن نون لن تستكمل القصة. ستكتفي بذكرى البياض تكتبها، لعل الكتابة تطهر جرح اليوم الدامي. لم تتعافَ روحها بعد رغم مرور عشر سنوات. هل جاء الألم أيضًا على ثلاثة أوجه؟ فقدت جنينها، ولم يمنحها الطب تفسيرًا مفهومًا، ففقدت الرغبة في الحمل من جديد؟ حين ذكرت لي نون مسألة بنية القصة لم تكن تشير إلى أن كل حركة فارقة كتبتها جاءت مقسومة على ثلاث خطوات تحقيقًا للمثل الألماني الذي بدأت به. ليس هذا وحده مقصودها. بل الأرجح أنها كانت تطيل في مقدمات القصة لتقول لي إنه ليس بالضرورة أن تفضي البدايات الواعدة إلى شيء. أحترم ألمها الذي لا يزال ساخنًا. لست أرثي لحالها، وأعلم تمامًا أنها لم تفقد إيمانها، لكن ليس لي أن أكشف عن حكمة غائبة.

أحمل هاتفها ريثما تطمئن على الأكياس الملونة لمرة أخيرة قبل حملها إلى السيارة. أستغل الفرصة فأقلب في الأخبار التي يلقيها الفايسبوك عن انفجارات في نواحٍ متفرقة قريبة وبعيدة، ودراسة نشرها موقع مجلة «تايم» تربط زيادة حالات الإجهاض ووفيات المواليد

بالارتفـاع المضطـرد في معـدلات التلـوث. يتصـدر الشريـط الأزرق خـبر عـن اختطـاف طائـرة مصريـة لأسـباب لا تـزال مجهولـة، وآخـر عـن ذبـح جمـل أوقـف حركـة السـير في شـارع قـصر العينـي، وثالـث يقـول إن أوتوبيـس نقـل عـام اخـترق سـور الـترام قـرب مـترو الدمـرداش. إذن لا جديـد. أخبـار معتـادة كلهـا. أغلـق الهاتـف وأضعـه في حقيبتهـا.

في محاولـة أخـيرة لإنقـاذ نـون، وربمـا أيضًـا إنقـاذ القصـة، أتجـرأ وأضيـف السـطور التاليـة:

أبـدًا لم تفقـد إيمانهـا أن هنـاك دنيـا كاملـة خاليـة إلا مـن عصافـير الجنـة، وضحـكات الفـرح، وحواديـت الملائكـة، وشرائـط قـوس قـزح، مكنونـة في أعمـق زواياهـا وأن عليهـا أن لا تكـف عـن محاولـة إخراجهـا للنـاس فيغلفهم وجودهـا الضـافي.

مثل حبة مشمش عملاقة

أخبَرتَني أني أول من تتصل به لتبلغه نبأ ترقيتك.

دُرت حول نفسي من السعادة ثم أدركت، دون حاجة إلى تنبيه منك، بل من واقع إحساسي بالمسؤولية، أنه ينبغي ألا أكون أول المهنئين لك في مكتبك الجديد، وعليّ أن أسمح لزملائك وأهلك أن يسبقوني. لا بأس. ليكن هذا آخر ما سأتحمله بعد صبر السنوات الماضية. ولن أجعل مسألة بسيطة كهذه تفسد فرحتي الطاغية. ولن أسمح لقلقي المبهم أن يسلبني صفو لحظات أهنئ فيها نفسي على الإنجاز الكبير الذي صنعناه معًا. هذا حقي أكيد. مددت ذراعاي نحو السماء، وسحبتُ منها الليل المرصع بنجومه. لففته حول خصري بدلال، ورقصت فوق سطح كل دار بالمدينة الغارقة في الضباب. كان الضباب كثيفًا، ومصفرًا حتى إن أعمدة الإنارة الكابية لم يفلح ضوءها في اختراق سحابته. حتى القمر كان قريبًا، ومصفرًا مثل حبة مشمش عملاقة تسد باب الصعود. لدهشتي تعبت وتهدجت أنفاسي وكأني ما اعتدت أن أرقص من أجلك طول الوقت. ورغم لهاثي، شعرت ببرد يلفني ترتجف منه روحي.

عدتُ إلى بيتي، إلى «محرابك»، كما كنت تطلق عليه. قلت لنفسي الأفضل أن أتهيأ لحضورك، فقد تفاجئني وتأتي. ولم لا، ألست مشمشتك؟ مشمش. أبتسم. تاريخنا طويل مع المشمش. أضحك من ذكرى تلك

المرة التي أجبتني فيها بكل تلقائية وحسم «في المشمش!» حين سألتك وأنا كلي أسى «متى تكون حقًا لي؟». اشتعل غضبي منك وأخذت أصرخ في وجهك وظللتَ أنت تبتسم وتقهقه حتى سقطتَ على الأريكة من الضحك. فلما بدأتُ أبكي سحبتني من ذراعي بنعومة وأجلستني على حجرك. مسحتَ دموعي بأناملك وهمستَ في أذني «يا عبيطة.. موسم المشمش هو موسم تزويج البنات في أوروبا في العصور الوسطى، لأن زهور المشمش الجميلة هي اللي كانوا بيعملوا منها تاج العروسة». لم أصادف هذه المعلومة أثناء إجرائي البحث الأخير، لكني صدقتك كما أفعل دائمًا. فقد كنت تعرف تمامًا كيف تجعلني أخجل من جهلي، وأشاركك في الضحك عليّ.

تليفونك مشغول. لا أظن أنك ستأتي الليلة. أحسن. فأنا أشعر بتعب غريب ولا زلت بردانة رغم الملابس الثقيلة. دخلتُ إلى فراشي مباشرة لأتدثر وأرتاح، لكني ظللت أتقلب وأرتجف من البرد، مع أني تغطيت بمفرش السرير المشمشي المشغول بخيطان الذهب الذي أحضرته لي من «بومباي». زدتُ الأغطية فوقي عل دفئها يتسرب إلى أوصالي المرتعدة. ما أكثر ما قلت لي إنك ستصنع لنا حياة في لون المشمش المشرق، ومسكرة مثل طعمه، لدرجة أني صرت أرى شجر المشمش كل ليلة في المنام. صار المشمش كلمتنا الخاصة، نبتسم من مجرد ذكرها. نعم، ما أحلى الأوقات التي قضيناها معًا بعيدًا عن عيون المتلصصين. كنتَ كريمًا في احتفائك بي، تدللني مثل قطة صغيرة، وتحضر لي تذكارًا

مشمشيًا من كل بلد تسافر إليه لإلقاء بحث في مؤتمر أو عقد جلسات تصوير. من «نيس» أحضرت لي صندوق مكياج له أدراج ثلاثة، تحوي كل الدرجات اللونية التي تليق بمشمشتك. كنت ممتنة أنك لم تدعني أجرب ألوانًا مختلفة فأفسد طلتي. وكنت أحب الوقت الذي تقضيه في تصفيف شعري ووضع الظلال التي تحبها على وجهي. دائمًا تضع اللون الموف على جفوني. تقول هو أكثر لون يناسب عيوني الخضراء وشعري الأحمر. أليس حلم كل امرأة أن يجعلها رجلها جميلة؟ كنت أحسد نفسي على حظي الذي أوقعني في رجلي الذي هو فنان، بل وأستاذ في الفنون. قبل أن تسافر إلى «سان فرانسيسكو» طلبت منك ألا تحضر لي شيئًا كعادتك من هناك فقد سمعتُ أن البحارة الأمريكان يتشاءمون من المشمش. لكنك استغربتَ ساعتها من «النباهة» التي صِرت أبديها مؤخرًا. كانت واحدة من المرات التي لم أعرف فيها إن كان عليّ أن أعتبر تفاجؤك بي علامة إعجاب أم علامة استخفاف. وكانت القطة تبتلع لساني حين أستشعر ذلك الوخز المبهم مثل الذي أستشعره الآن ويمنعني من النوم. لعلي فقط متوثبة للقائك غدًا. أليس من حقي أن أكون سعيدة بتعيينك رئيسًا لقسم الفنون الجميلة بالجامعة الأجنبية في المدينة الجديدة الواعدة؟ حقي أكيد.

أشعر بدوار رغم أني لم أغادر الفراش. أريد أن أفرغ ما في جوفي لكن معدتي لا تستطيع. يبدو أني أصبت ببرد لما رقصت على الأسطح بملابس خفيفة. أدس رأسي في الوسادة فأشعر بدوامة تسحبني إلى باطن الأرض.

«يـا الـلي الهـوا هـزه.. يـا حمـوي.. يـا ناعـم». بالـكاد أرفـع رأسي وأتلفـتُ يمينًـا ويسـارًا. لا لم تـأت. ليـس أحـد غـيري هنـا. يبـدو أني غفـوت لدقائـق فسـمعت نـداء البائعـة عـلى مشمشـها في الكابـوس الـذي سـحبني. آآه.. لا الـبرد يتركنـي ولا الصبـاح يـأتي. وهـل كان الصبـح أبـدًا لناظـره قريـب؟ قـرأت في أثنـاء إعـداد البحـث الأخـير أن المشـمش يتحمـل الـبرودة بشـكل ممتـاز. ورغـم هـذا فثمـرة المشـمش هشـة ورقيقـة، مـا إن تنضـج حتـى تجعلهـا أي نسـمة هـواء تسـقط عـلى الأرض. «يـا الـلي الهـوا هـزه.. يـا حمـوي.. يـا ناعـم». يبـدو أن سـعادتي المزعومـة لا تسـير بي نحـو دروب ناعمـة، وأن أفـكاري مصممـة عـلى تطويحـي في زوايـا رماديـة الظـلال. أيـن أنـت الآن لتخـدر أعصـابي المرهقـة بهمسـك السـاحر ولمسـاتك المدربـة؟ حياتنـا معًـا لم تكـن كلهـا سـفرك وهدايـاك. كنـت أبـذل كل مـا في وسـعي كي أخفـف عنـك أعبـاء أيامـك وكي تكـون مشمشـتك دائمًـا عنـد حسـن ظنـك. لقـد كافحنـا معًـا مـن أجـل أن تصـل إلى منصبـك اليـوم. حـين شـكوت لي مـن لهاثـك المسـتمر وراء أعـمال لسـت مقتنعًـا بهـا لتحافـظ عـلى مسـتواك الراقـي، وخشـيتك أن يمنعـك ذلـك عـن ممارسـة الفـن الـذي تحبـه، كـما يعطلـك عـن كتابـة الأبحـاث وحضـور المؤتمـرات، طلبـتُ منـك أن نقتسـم الهـم معًـا. وشـعرت بامتنـان حقيقـي نحـوك حـين سـمحت لي بالمشـاركة البسـيطة في مصروفاتـك مثـل أي امـرأة جدعـة تسـند رجلهـا. نعـم. كنـت أريـد أن أكـون جدعـة معـك، وأيضًـا، بصراحـة خجلـت أن أذكـر أني اقتنعـت بآخـر تفسـير ذكـره «ابـن سـيرين» في كتابـه عـن حلمـي المتكـرر بشـجر المشـمش «امـرأة مـوسرة في يدهـا مـيراث ومـن جنـى منهـا شـيئًا تـزوج بهـا». لم تكـن

المصاريف تشغلني ولم أحدثك عنها حتى لا أجرح كبرياءك. كنت أحب أكثر تلك الأوقات التي نمضيها في كتابة أبحاثك فأسعد بنفعي لك. تخبرني بموضوع البحث، وتشرح لي فكرته، وتحضر لي الكتب ثم تترك لي ورقة تحمل تساؤلات يتعين عليّ أن أجد إجاباتها. أمضي أيامي التي بدونك أقرأ المراجع وأستخرج لك الاقتباسات الملائمة، أبحث في الإنترنت، بل أحيانًا أترجم أجزاءً من الدراسات الأجنبية، ثم أخيرًا تأتي أنت لتجد كل شيء معد وفي انتظار توجيهاتك. أي الفقرات يأتي أولًا وكيف نربط بعضها ببعض. تُملي عليّ فأكتب. تكتب لي خطوات مرقمة فأتبعها حتى ينتهي البحث. كنت أفرح حين أفاجئك بشطارتي وأستمتع بثناء أستاذ خطير مثلك على نباهتي، وقدرتي على التعلم السريع، وأسلوبي الذي يتحسن في الكتابة.

هدأت معدتي قليلًا. يبدو أن ذكرياتنا الناعمة أراحتها، ولعلها تريحني. كم عشقت اللحظات التي يسود فيها الصمت بيننا، فأتأمل ملامحك الوقورة تذوب وأنت تنظر لي، وتتوه يدي في شعرك الفضي الناعم. العصفورة تزقزق على الشرفة. إذن قد حان الفجر. هانت. ساعات قليلة وأراك في مكتبك. لقد أكدت لي أنك ستكون هناك اليوم. الأفضل أن أقف الآن تحت الدش الدافئ لأنثر عن جسدي التوتر والإعياء. أفتح الدولاب فتقع عيني على الكيمونو الحريري الذي أحضرته لي من «كيوتو». لم أحبه قط رغم أني أدركت أنه ليس فقط آخر هدية تجلبها لي، وإنما أغلاها أيضًا. لقد فسرتَ دموعي التي سقطت بمجرد رؤيته

عـلى أنهـا دمـوع الامتنـان، فأكلـت القطـة لسـاني وخجلـت أن أخـبرك كـم كرهـتُ هـذا الـرداء. أرجـوك لا تغضـب. صحيـح إن لونـه وردي فاتـح مثـل زهـور المشـمش، بـل إن شـجرة مشـمش مزهـرة مرسـومة عـلى «الأوبي»، حـزام الظهـر، لكـن بصراحـة قلبـي انقبـض لمـا رأيتـه، وظللـت أيامًـا أطـرد مـن خاطـري فكـرة أني ألعـب في حياتـك دور فتـاة جيشـا. أشـيح بوجهـي عـن الكيمونـو وأفتـش في الـدولاب عـن ملابـس مناسـبة للقائـك المرتقـب. لا أجـد.

أتوجـه إلى غرفـة ابنتـي فأكتشـف أنهـا غـادرت إلى مدرسـتها. أفتـح دولابهـا وأخـرج الفسـتان الـذي اشـتريته لهـا مـن أجـل العيـد. فسـتان يليـق بحوريـة صغننـة. نصفـه الأعـلى مـن السـاتان المكسـو بالجبـير، والأسـفل مـن التفتـاه. يبـدأ مـن عنـد الكتفـين بأعمـق درجـات الـوردي، ثـم يتـدرج لونـه فاتحًـا فأفتـح حتـى يصـل إلى أنعـم درجـات الأصفـر. أرتـدي الفسـتان وألـف بـه عـدة دورات في الهـواء، فتـدور تنورتـه معـي وحـولي. يختـل اتـزاني فأسـقط عـلى الأرض. أضحـك عاليًـا وأسـحب حـذاء العيـد ذهبـي اللـون وأرتديـه. أقـف وآخـذ الحقيبـة الصغـيرة، ألسـت صغيرتـك؟ تركـتُ شـعري مموجًـا كـما تحبـه وشـبكتُ قصتـي بالدبـوس الـوردي الـذي أحضرتـه لي مـن «ميلانـو». لا بـد أنـك حـين تـراني هكـذا سـتقع في غرامـي مـن جديـد. ألم تـترك مـن أجـلي كل هوانـم الزمالـك وحملتنـي دونهـن إلى عالمـك السـري الأخـاذ؟ أسـارع في الخـروج فيسـبقني شـوقي. لا أتحمـل زحـام المـرور، ولا أجـد سـيارة تقلنـي إليـك، فأسـير عـلى أقدامـي نحـوك في مدينتـك الجديـدة.

أمـر في الطريـق عـلى المولـد. أغـادر المراجيـح والمداحـين عـلى عجـل وأشـتري لـك بالـون ومشمشـية حتـى لا أتأخـر عليـك. الحـذاء ضيـق. لكـن هانـت، كـدت أصـل. يتدفـق الـدم مـن وجنتـي، لا بـأس. ستعشـق شـكل وجهـي المحمـر. يدمـي الحـذاء قدميّ. لكنـي أخـيرًا وصلـت. أخلعـه وأحملـه في اليـد التـي تحمـل البالـون. المصعـد معطـل. لا مشـكلة. لم يبـق أمامـي سـوى المرحلـة الأخـيرة. تتقافـز خطـواتي العاريـة عـلى السـلم حتـى أصـل إلى الـدور الخامـس الـذي يقـع فيـه مكتبـك كـما قلـت لي. أقـف قليـلًا في محاولـة لتمالـك انفعـالي وتوضيـب شـعثي المبعـثر. فأنـا صغيرتـك التي سـتدخل عليك صاخبـة لتحتفـلا معًـا بالعيـد. بمجـرد أن أفتـح البـاب سـأقذف بنفـسي عـلى صـدرك وأقبـل جبينـك وسـأنتظر أن تحملنـي عـلى حجـرك مثـل كل مـرة. أقـترب مـن بـاب غرفتـك فتصمـت كل الأصـوات إلا قلبـي الـذي يدكنـي دكًا. يرهبنـي منظـر البـاب فأفضـل أن أدخـل عليـك بِطلّـة مختلفـة قـد أخلعهـا بعـد أن أطمـئن. أربـط البالـون في يـدي. أخـرج مـن حقيبتـي جلابيـة قطنيـة أرتديهـا فـوق الفسـتان. أشـم كمهـا لأتأكـد أن لم يعلـق بهـا روائـح مزعجـة. تباغتنـي رائحـة الصابـون والزهـرة المنبعثـة منهـا. جلابيـة مشرفـة. سـتذكرك بأمـك، وستعشـقني أكـثر بعـد أن كنـت تضيـق أحيانًـا مـن صخبـي الطفـولي. ألـف شـعري المهـوش بطرحـة بيضـاء وأشـعل أعـواد بخـور وأبـدأ في الذكـر لإبعـاد كيـد الحاسـدين عنـا، كـما حكيـت أن أمـك كانـت تفعـل قديمًـا. أدق البـاب. معـي أيضًـا كنكـة وبـن وسـبرتاية لأصنـع لـك القهـوة التـي تحبهـا ولم تعـرف امـرأة أن تضبطهـا لـك بعـد أمـك سـواي. أدق البـاب. ربمـا سـأقرأ لـك الفنجـان بعـد أن تنتهـي مـن قهوتـك. أضحـك، بالطبـع لـن أقـول أن

أمامك سكة سفر. فهذه تعرفها وأعرفها ويعرفها كل الناس. وهل مثلك من مسافر؟ أعاود طرق الباب. لا أحد يجيبني. أدير الأكرة على مهل وأدفع الباب بلطف لكنه لا ينفتح. أدرك أنه موصد. ربما لم تأت بعد. أخبئ البالون والبخور والبن في الحقيبة. ربما لن تأتي اليوم. أتوجه إلى المكاتب المفتوحة. أسأل عنك. ربما لن تأتي أبدًا. لا أحد يعرفك. أتساءل إن كنت أخطأت العنوان. أفتح رسالة الموبايل فأتأكد أن هذا هو العنوان الذي كتبته لي. أرن عليك. لا أحد يجيبني. إذن لقد كان «ابن سيرين» محقًا من البداية. أهبط درجات السلم بقدميّ الداميتين. أول تفسير لحلم شجر المشمش هو «رجل مسقام لا ينتفع به». لكنه أهداني قطة تبتلع لساني كلما غضبت. أخرج إلى الشارع. وثاني تفسير هو «رجل طلق الوجه شحيح مع أهله» لكنه أهداني خاتمًا فضيًا يحليه فص عقيق. أسارع في الجري حتى أخرج من مدينته الخاوية. ألم يأخذ مني دنانير صفراء؟ وثالث تفسير يقول إن «من يجتني مشمشًا من شجرة تفاح فهو ملك جائر». لكني صدقتُ أني مشمشة ولست تفاحة. وكنت أحلم طول الوقت بشجر المشمش. صرت أتصبب عرقًا من طول ما مشيت. الهواء ثقيل وخانق. أخلع جلبابي. يا فضيحتي، فستاني الوردي اختفى. بسرعة أحاول ارتداء الجلباب من جديد، لكن أيادي الأوباش تمتد فتخطفه مني، وتخطف حقيبتي. وقال ابن سيرين إن «الثمرة الصفراء في الحلم مرض». أركض لأهرب من الناس. تنسكب دموعي رغمًا عني. أتلفت يمينًا ويسارًا. لم أعد أعرف طريق العودة إلى بيتي، «محرابك» المزعوم. وقال ابن سيرين «حين تُرى الثمرة في غير

وقتها دلت على تعب باطل». ألملم خرقًا من الطريق لأحاول أن أستر نفسي. لكنها بمجرد أن تمس جسدي تتلاشى. لم أعد أقوى على الركض. وقال ابن سيرين «ما كان حامضًا من الثمار فهو هم وحزن». قدماي بالكاد تحملاني. أشعر أني أتساقط. «يا اللي الهوا هزه.. يا حموي.. يا ناعم». ضربات متوالية، أطفال يتصايحون. يركضون ورائي. آآه.. يقذفونني بالحجارة. أحاول أن أهرب منهم. لم تعد قواي تسعفني. يركضون ورائي. الدنيا من حولي مصفرة. الحجارة تنهال عليّ. الضباب كثيف حتى إن أعمدة الإنارة الكابية لم يفلح ضوءها في اختراق سحابته. وقال ابن سيرين «والمشمش يدل على الخوف». الأطفال يتصايحون. يركضون ورائي. الأحجار تصيبني وتدمي جسدي. أسقط على الأرض من الإعياء. سينالون مني الآن. أصرخ وأصرخ لكن القطة تبتلع لساني. صوتي ينحبس. «يا اللي الهوا هزه.. يا حموي.. يا ناعم». حجر ثقيل يشج رأسي. أشعر بدمائي الساخنة تسيل على ... لا أقوى...

يا ناعم...

المدينة ... الضباب مصفرًا

و.. حتى القمر .. مصفرًا مثل... مشمش...

أبيض وأسود

«لا حول ولا قوة إلا بالله... إنا لله وإنا إليه راجعون»...

تمتمت مندهشة أنها اهتمت للخبر، ثم ألقت الجريدة، بعد أن أيقظ الخبر مضغة لم تكن تعرف أنها لا تزال تنبض داخلها. برغم ما كاد يورق حتى انطفأ فظنت أنه ما عاد يسكنها منذ عقود.

دخلت غرفتها ووقفت أمام المرآة المثبتة على دولاب ملابسها. القرص المصقول يعكس أخرى لم تتعود بعد أن تتفاهم معها رغم كل الزمان الذي مر. كانت تكتفي بنظرات ملقاة في عجالة للاطمئنان على أن كل شيء مستكين ومحتجب كما ينبغي له أن يكون تحت نقابها السابغ منطفئ السواد. اليوم فقط جعلها الخبر تنظر بعين ثانية لتلك التي هي ولم تعد متأكدة تمامًا إن كانت هي. حلت جديلتها ودارت دورة حول نفسها. ضيقت ثوبها من عند الخصر تتأمل عودها كطفلة تتوثب لتدرج مدارج الصبا والصبابة. لا تصدق أنها صارت خمسينية، كيف هذا وقلبها لا يزال يدندن اللحن العتيق «خفيف الروح بيتعاجب بيتعاجب برمش العين والحاجب خفيف الروح، خفيف الروح». تمايلت في المرآة مع الطفلة التي كانتها. تلك التي لا يزيد عمرها عن الحادية عشرة بعد أن شاهدت لأول مرة فيلم سيد درويش. كم أيام مرت وهي لا تفتأ تتراقص أمام مرآتها انبهارًا بالموال وانبهارًا بها.. نعم.. بهند

رستم.

كان ذلك في الزمان البعيد حين تركها والداها عند جدها ورحلا إلى صحراء مثقلة بوعود. لم تفتقدهما كثيرًا فقد كانت تستمتع يوميًا بتناول الغداء مع جدها أمام فيلم الظهيرة حين كان البث التلفزيوني مجرد قناتين تبدأ الأولى في التاسعة والثانية في العاشرة ليتوقفا سامحين بقيلولة صارت عزيزة ويعودا مساءً مع شاي العصاري. بعد الغداء يخلد جدها قليلًا للنوم بينما هي تعيد تمثيل دور البطلة التي تعاطفت معها في الفيلم الذي عرض منذ قليل. ولأنها كانت مضطرة إلى تنظيف صحون الغداء وترتيب المطبخ فكثيرًا ما كان يحلو لتلك الصبية أن تتراقص أمام منور العمارة الأرستقراطية بحي مصر الجديدة منتحلة دور فتاة «بلدي» لم تعرفها إلا من الشاشة الفضية. كانت تحاكي لكنتها، وحركات يديها، جلبابها المعقود على جنب أسفل خصرها بقليل، وزينتها البلاستيكية الفاقعة. ما كانت تنفق مصروفها إلا على «الغوايش» الرخيصة، والعقود الطويلة والأقراط المخروطة، ولا تنسى مناديل الرأس المرصعة بالبدرة ذهبية اللون.

فقط حين رأتها تجرأت على وضع أحمر الشفاه الفاقع ورسم الخال على الخد والتبختر أمام المرآة بالشبشب الفضي قبل أن تتقن حبك الملاية اللف حول عودها البض، لتضيف في مرحلة لاحقة الخلخال الذي يشخلل مع كل دبة من كعب الغزال. وأخيرًا صارت مؤهلة لتقف أمام مرآتها كسندريلا سكندرية لتعطيها مرآتها صك الاعتراف

«أنا دندوشة»، طبعًا بعد أن تتراقص على أغنية «من بحري وبنحبوه على الإمة بنستنوه، شبك الجمالات وشبكني وإزاي نقدروا ننسوه، من بحري وبنحبوه» وتمط شفتيها «أيووه أيووه». ومع تقديرها الكامل لكل نجمات الزمان الذي صار يسمى فيما بعد تحسرًا الزمن الجميل، كانت ترى في هند رستم النموذج الأعلى والأرقى والأكمل والأولى بالاتباع. إذ كانت هند في رأيها تجمع الفتنة والقوة والرقة والعزم. وخاضت مع صديقات مدرستها معارك ضارية للدفاع عن هند وفنها الذي عدته الأخريات مبتذلًا. لم تصمد كثيرًا أمام انبطاح الأخريات أمام فاتن وماجدة وإيمان ونادية وشادية والاكتساح المظفر لسعاد حسني. لكنها لم تتوقف قط عن الانبهار بهنومة وتوحة وعزيزة ونرجس، وجليلة التي شكلت وجدانها وجعلتها تعشق الإسكندرية وبحرها وزعفرانها وأزقتها، ومحمود سعيد وبنات بحري وإن كفت عن الإفصاح بإكبارها لجليلة تحرجًا وخجلًا صار يعرف طريقه إليها، تدريجيًا لكن بقوة. وما كانت تحب عيد ثورة يوليو إلا لأنها المناسبة التي يعرض فيها «رد قلبي»، وبه ما كانت أبدًا لتخطفها إنجي الأميرة، وإنما كريمة، سميّتها، تلك الراقصة الفاتنة، العاشقة المضحية. كم فتنها فتونًا رقص كريمة ببدلتها السوداء ذات الخطوط البيضاء التي لا تزال تذكرها رغم الشيب الذي وخط سواد شعرها. كانت تبدو كفراشة حزينة تقطر كل حركاتها والتفافاتها دموع الفراق ويفوح منها عبير الفقد رغم الحاجز الفضي. أما ابتساماتها فكانت قلة الحيلة في مواجهة الاحتراق المحتوم لفراشة قررت أن تعشق النار. هكذا تصورت نفسها ستكون. كريمة

عاشقة مضحية تحترق في نهاية المطاف بعد أن ترقص رقصتها الأخيرة. هل اختارت لنفسها ذاك المصير دون أن تدري وسارت لتحققه صاغرة دون أدنى مقاومة؟

لقد توقفت عن متابعة الشاشات الفضية والملونة حين درجت إلى الثانوية العامة. لم تتحقق أي من الوعود التي منت نفسها بها طفلة. فلا هي عرفت لنفسها صديقة تطلعها دواخل نفسها، ولا هي صادفت عشقًا يرج كيانها المتداعي، ولا هي دخنت السجائر سرًا. لا تذكر تحديدًا كيف تم لها المرور الآمن من بوابة المراهقات. ربما مرض جدها أخجلها أن تخذله؟ وما بين تمريضها للجد ووحدتها التي لا ملأتها الصاحبات ولا عودة الأم ولا كنف الأب الذي استحت أن تنضوي تحته مثل أي غريبة، وبين أحلامها التي ما تكاد تبزغ حتى تنطفئ قررت أن تملأ فراغها الرهيب بالمذاكرة لتصير «دكتورة قد الدنيا»، فكان لها ما أرادت. قابلته في السنة الأولى من الكلية فأسرها بحضوره الغامض، وتفوقه الظاهر وتلك المهابة التي يفرضها على كل من حوله. أهداها شعورًا بأمان لم تعهده من قبل فسارت وراءه كأنها تريد ما يريد، رغم أنها لم تعد تفكر كثيرًا فيما تريد. صارت واحدة من «الأخوات» وذاقت لذة السجود، ودموع التطهر وأدعية التوبة من آثام الماضي المنكر. انعقدت آمالها على تحرير الأقصى فتزوجت في السنة الرابعة من الدكتور إبراهيم لتنجب صلاح الدين وحمزة وبلال وتصير أم الرجال. كافحت لتنهي دراسة الطب بلا نجاحات براقة ولا إخفاقات مخزية. انهمك

الدكتور إبراهيم في عيادة النساء والتوليد التي صارت تدر عليهم دخلًا معتبرًا، وفي إعداد الماجيستير والدكتوراة والزمالة والأستاذية والمؤتمرات والمستشفيات ومراكز علاج العقم وأطفال الأنابيب، واستنزف ما تبقى من وقت في العمرات وقيام الليل. مرة وحيدة أبدت رغبة في افتتاح معمل للتحاليل الطبية يرحمها من الوحدة التي تمتصها على مهل رغم الانهماك في شؤون الأولاد ودروس المسجد. عالج الدكتور محمود الموقف بمنتهى الرقة فأهداها خديجة تسحب البقية من طاقتها وتسري عنها لبضع سنوات أخرى ليعود لانشغالاته العديدة مطمئن البال. أما هي فكفت عن سؤال نفسها أسئلة لا تملك مواجهة إجاباتها وتحصنت بأدعية تفريج الكرب. لم تغزُ التجاعيد وجهها بوقاحة وأبقت لها على ظل من ألق قديم رغم انطفاء بريق العين. كم يلزمها من كبسولات كالسيوم لتعاود الرقص ببدنها الهش على دندنات خفيف الروح؟ وكيف بعد كل هذا العمر الطويل تحطمت الروح؟ ولماذا القلب مثقل ومنغلق على ما فيه؟ لقد نسيت كيف «تتعاجب برمش العين والحاجب» كما نسيت أشياء كثيرة ضاعت في تفاصيل الحياة المنهكة. «الحمد لله، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله». مسحت وجهها بكفيها عدة مرات وهي تلهج بالاستغفار. الدنيا رمضان وأذان المغرب يوشك على الارتفاع في الآفاق، لكنها لا تريد أن تغادر مرآتها التي وقفت أمامها منذ قرأت بالجريدة أن هند رستم قد وافتها المنية بالأمس. كل ما سطع يسير نحو الانطفاء. حين همت بالإفطار على التمر توقفت وأخذت تدعو كثيرًا لها ولهند رستم بالرحمة.

مطعم على رصيف الحلم

لمح الرجلُ المنضدة التي خلت بالمطعم،

فانقـض ثلاثتهـم عليـه وحـشروا أجسـادهم المكـدودة فيـه. المـرأة الأولى في مقابـل المـرأة الثانيـة، يتناوبـان الإطـلال عـلى البـراح، وأخـذ أنفـاس عميقـة مـن النارجيلـة التـي رسـمتها موسـيقى أوفيـد العـازف أمامهـم فعبقـت الأرجـاء بروائـح الانتشـاء.

ربـض حـورس في الزاويـة السـامقة، وأشـعل سراجًـا في روحـه ليرتـق حلـمًا سـميكًا يلتحـف بـه في كهفـه الشـتوي. كان التشـكيل عشـوائيًا، خليقًا بسُـيّاح الصيـف الآتـين مـن الجنـوب عـبر البحـر المتمـدد بـين القارتـين. هكـذا رآهـم رواد المطعـم. وحـده النـادل الإيطـالي ذو الثـلاث أعـين عـرف أنهـم يحاولـون إعـادة ترتيـب مشـهد «البعـث والحسـاب» في كتـاب «الخـروج إلى النهـار» المشـهور باسـم «كتـاب المـوتى». كانـوا -مثـل كل الغرقـى- يحاولـون الهـروب مـن حتميـة النهايـة الواحـدة.

كان كل شيء سـابق التجهيـز؛ صالحًـا لبـدء جدليـة أكاديميـة مجدبـة حـول «نحـن وهـم»: الهـواء المنعـش، السـماء الأرجوانيـة، قرميـد الشـارع، الإطلالـة عـلى واجهـات الأوبـرا العريقـة ومدخلهـا البهـي، أوفيـد العـازف، رواد المطعـم المنهمكـين في الأحاديـث البهيجـة، النافـورة الرخاميـة التـي يـتراءى طرفهـا ويسـمع خريـر مائهـا إن سُـمحَ للأفـق أن يسـتطيل أكـثر، بـل

وحتى الشجرة المتوحدة في الركن.

تحسست إيزيس نصل السكين الموضوع على المنضدة في الوقت الذي فعل فيه حورس نفس الشيء، أما نيفتيس فما كادت تقترب أناملها من سكينها تحسبًا للمناقشة الوشيكة حتى دق -كالعادة- هاتفها المحمول، ليذكرها بكل الواجبات التي لا يزال يتعين إنجازها للتخفيف من وطأة الغد وجعله أكثر احتمالًا. نظرت لها إيزيس بكثير من التعاطف. كانت خير مَن تعرف ألم أن تكون فريسة زمن وحيد. فهي ذاتها محتومة أن تكرر أسطورة الأفول بكل دأب. تمنت لو مدت ذراعيها فتتصل بنفتيس بلا حواجز منيعة، لكنها تخشى أن تجذبها نحو آبارها المنغرسة في جوف الصحاري؛ تلك التي ما عادت ترى بالعين المجردة على خرائط أهل الشمال. ما إن تذكرت إيزيس البئر حتى أخرجت لها برمجتها العصبية آلافًا من ممكنات «رجل وامرأتان»: ما بين واجبه وجائزة ومستحبة. سيتعين عليها أن تراجعها وتصنفها حسب المذاهب قبل أن تستنبط الفتوى الصحيحة، التي -كالعادة- سيعمل بها الافتراضيون ويرفضها الفضائيون. أكيد ستطلب العون من الشيخ الذي ترتديه في أذنها، لكن النادل سبقها وقدم لثلاثتهم حساء الطماطم الموشى بوريقات ريحان طازجة. أبدلهم ملاعق بالسكاكين والشوك فامتثلوا لنصيحة شياطين جنونهم وأجلوا الجدل لينهلوا من نهر المتعة.

انسل الشيخ ليتجول في الميدان. «لا تبتعد عن مرمى نظري» نادته إيزيس. هرم كثيرًا. تحول مع الزمن إلى زمن بأكمله موغل في السرمدية،

والهذيان. صار قديمًا وهشًا ومكررًا. كل حروفه استهلكت حتى انطفأت، ونكصت على أعقابها حتى تعرت. الدهشة واللوعة والحنين صارت خبالًا مزعجًا وضاغطًا. دق حورس بملعقته على الصحن دقات معدنية لينتشل إيزيس قبل الغرق لمرة جديدة في بقية من دموعها ثم قال: «الحروب القادمة ستكون حروب مياه. وستنالين فيها شرف الجندية لو أودعت أوزيريس المصحة بعد ثبوت إصابته بالألزهايمر». ردت إيزيس: «لم أعهدك عاقًا قط؛ ولست مستعدة لتحولات طارئة»، فقال حورس مستنكرًا: «لست كذلك، وإنما محارب وحالم ورحيم، لو تعلمين» أومأت نيفتيس مؤكدة سلامة منطقه ونبل مقصده. أحبت أن تتحدث عن روعة حساء الطماطم لكن داهمتها -كالعادة- دقات هاتفها المحمول منذرة بمزيد من الواجبات التي يتعين قضاؤها.

ينغمس حورس في كسور اللحظات الممنوحة. يشربها كلها فلا ينكمش إلى غيابة البئر ولا يتبدد نحو شتات سنوات ضوئية لم تحن بعد. يقف على البرزخ مراقبًا الوقائع وهي تتخلق مستقبَلًا. لا يطير ليقتنصها. يعرف أنها حتمًا في طريقها إليه. ينقض فقط لو حاول غيره اغتنامها. يدمغها ثم يطمئن على سلامة مرورها إلى خزانة الذخائر. يزن لحظاته على ميزان الماس، ويصيغها على روعته، ومضائه. لم يعد يشرح كثيرًا مخافة التيه. يفضي رمزًا، لكن فقط لمن يستحقون. يأتنس بأولئك الذين يكفونه مؤونة الكلام، ويستمتعون بجلال الصمت وطهارته. إن لزم الأمر يطلب من نيفتيس أو إيزيس أن يترجما عنه، فهما ماهرتان

في ذلك. من أجل هذا يغفر لهما حماقاتهما أحيانًا وإصرارهما الغبي على تكرار الأخطاء بمزيد فاعلية. لو أنهما تعتنيان بنفسيهما حقًا، لما اضطرتا للانكفاء في الأسر، ثم الانسكاب على قارعة السفهاء. لكن ما العمل؟ ومتى يودّعان الانحشار في الطور الأول إن لم تكفهما سبعة آلاف عام؟ ستظل إيزيس تبكي نهرًا، تجمع أشلاء الحبيب في صناديق فاخرة تكنزها في المخازن المغمورة بالرمل، تنجب أطفالًا لا يكبرون، تبكيهم وتبكي الشيخ الفاني حتى قاربت كل ينابيعها على النفاد وبدأ القحط يسود البقاع. تعلم إيزيس أن كل ما يتعين عمله هو التوقف عن البكاء، قتل الأطفال، وضع كل أشلاء أوزيريس تحت قدميها. ساعتها فقط ستتخذها درجًا صاعدًا من غيابة البئر إلى فج النور. إنها تعلم ورغم ذلك تبكي وتحنو وتدع الأطفال يعبثون بصناديق الأشلاء كما يحلو لهم. يختلفون ويتفرقون ولا يبنون الدَرَج الصاعد. يصخبون في كل اتجاه فيقل الفراغ المتاح، ويكاد ينفد الهواء. أما الأيقونة الأخرى، البديعة نفتيس، فإنها لا تني تجمع خيوطًا حريرية من قلق وهم وخوف وندم وشوق وحلم، كل ما لا أبدًا يأتي. تجيد تعقيدها وتشبيكها جميعًا في شرنقة مهيبة تحيطها وتواصل فيها العدو. لا تتم حكاية، لا تشم زهرة، لا تلتقط نفسًا. فقط تلهث. تعلم نيفتيس أن كل المطلوب هو قص الحرير والطيران فراشة من قوس قزح، فتصير الأجنحة فرشاة رسّام أو أوتار قيثارة. ابتسم حورس لخاطر غناء إيزيس على نغمات قيثارة نيفتيس. ما الذي أخرجهما من مشهد «العازفات»؟ أغمض حورس عينيه الجارحتين حتى لا يشاهدا امتلاءهما مزاج الشفقة والحسرة. لكنه

سرعـان مـا فتحهـما اضطرابًـا وبسـط جناحيـه فزعًـا حـين انطلـق الطنـين المزعـج المتصـل. هـدأ حـين أدرك بعـد ثـوانٍ أنهـا نوبـة مداهمـة جديـدة مـن هاتـف نيفتيـس المحمـول، لكنهـا هـذه المـرة -للغرابـة- ظلـت تطالعـه ولا تسـتجيب... ثـم..

ثـم خلعـت قناعهـا وقالـت المـرأة الأولى: «أنـا زهقـت بقـى مـن الـدور دا»، فـردت المـرأة الثانيـة: «خـلاص مـا تزعليـش نفسـك. مـا احنـا هانبـدل بكـره زي مـا اتفقنـا». لكـن الأولى أصرت مسـتنكرة: «أنـا مـش عايـزة أبـدل كل يومـين، ولا كل يـوم حتـى. أنـا خـلاص زهقـت مـن الدوريـن. دا كل قنـاع فيهـم لبسـته فـوق الألـف مـرة. كفايـة بقـى». انتقلـت عـدوى الضجـر الممـض للمـرأة الثانيـة، لكنهـا استمسـكت بخيـط أمـل واهٍ وقالـت «أنـا كـمان زهقـت جـدًا. بـس هنعمـل إيـه؟» تركـت السـؤال معلقًـا في الهـواء وفرشـت ضحكـة عاليـة «ينفـع نبـدل مـع حـورس؟!» سرعـان مـا جمعتهـا خجـلًا قبـل أن ينطلـق الضحـك أعـلى. التقـط الرجـل الموجـة الضاحكـة قبـل أن يغـرق الموقـف في بـؤس الخجـل والضجـر «لمـا تبقـوا تِطْوَلـوا حبتـين» فواصلـت المـرأة الثانيـة متشـجعة عـلى إظهـار مـا تخفيـه مـن نفـاد صـبر: «هههههـه... ظريـف أوي مـش قـادرة أقولـك قـد إيـه.. هـي أصلهـا ناقصـة اسـتظراف»، رد الرجـل مستمسـكًا بلياقتـه المعهـودة التـي يداريهـا وراء الاسـتخفاف «إنـت هاتبتـدي تتعفـرتي إنتـي كـمان.. هـدوا نفسـكوا شـوية لغايـة مـا نشـوف حـل».

كادت المـرأة الأولى تبـكي مـن فـرط اليـأس «نهـدى إزاي بـس.. إحنـا فعـلًا

تعبنا مش بس زهقنا.. مكتوب علينا نفضل مكملين كدا لحد إمتى؟ داحنا ولا سيزيف.. سلام قولًا من رب رحيم!». لم تجد المرأة الثانية ما يمنع أن تظهر ما يعتريها من يأس هي الأخرى فقالت: «أنا أكتر حاجة هاتجنني إننا مش عارفين إحنا سطور رواية وللا شخوص مسرحية، وللا مشاهد فيلم.. أنا خلاص ابتديت أشك في نفسي. ما باقيتش عارفة أنا حقيقة وللا وهم». فرد الرجل مستمسكًا كعادته برباطة الجأش «اثبتي وخلليكي جامدة شوية كمان. هانت. إحنا عارفين إننا حلم. إحنا الحلم. مش لازم أبدًا نشك في نفسنا تحت أي ظرف».. تسربت للمرأة الثانية بعض من طمأنينة الرجل فكررت بنبرة لا تخلو من اندهاش «إحنا الحلم!... لأ لأ وللا «النادل الإيطالي ذو الثلاثة أعين»!.. إيه يا عم الدماغ دي» وابتسمت وكادت تضحك مرة أخرى لولا أن المرأة الأولى لا تزال تغرق في يأسها المشروع وتقول «بس بجد الضغط بقى شديد أوي.. أنا مش قادرة أستحمل.. وبصراحة بقى أنا جعت على الآخر» فانطلق الضحك من ثلاثتهم كعادتهم حين تشتد بهم الحيرة، وواصل الرجل «أنا كمان جعان جدًا. نفسي نِترحم من شوربة الطماطم اللي عمالين نعب منها لما خلاص الواحد قرب يُطروش.. سوري في الكلمة يا جماعة، آسف جدًا. بقول لكم إيه.. تيجو ناكل سندويتشات شاورمة من بتاعة الأتراك؟ تخينة وسخنة ومتحبشة.. ياه». الأكل. كعادته مسكن مؤقت للوجع، يسمح بقدر من الانهماك الحلال ويتيح استراق بعض اللذة من جوف العدمية. قالت المرأة الثانية «طب ياللا نروح المحطة الرئيسية ونركب خط خمسة. عايزين نركز بقى المرة دي عشان ما نغلطش

نفس الغلطة ونلاقي نفسنا رجعنا هنا تاني». ثنت المرأة الأولى على كلام الثانية «فعلًا محتاجين نركز عشان نعرف المحطة اللي هتطلعنا من دماغ الراجل دا»، وأردف الرجل «لأ بس لازم نعترف.. دي دماغ عالية جدًا.. هههه. أنا مش عارف هو دكتور في إيه بالزبط.. بس واضح إنه لذيييذ» فقالت الثانية بابتسامة مشاكسة «لأ دا الجوع عامل عمايله على الآخر.. يالا المترو وصل أهو».

«يا دكتور.. يا دكتور.. يا دكتووورررر» استيقظ فزعًا على النداء وقال قبل أن يفكر «هه.. إيه اللي حصل.. بتضحكوا ليه؟ هو أنا نمت تاني ولا إيه؟ آه.. ياه.. تصدقوا إني نمت وحلمت كمان».

تضحكان، فيقول محرجًا «يا دي الكسفة! بس أصل محاضرة الست دي مملللة؛ يا ساتر! كان باين عليّ إني نمت؟» أجابته وهي تكتم الضحك: «بصراحة آه. كل الناس خدت بالها. لأ وحضرتك قاعد في الصف الأول. زمان الست ادمرت يا عيني!». رد لا مباليًا وجادًا: «يا شيخة دي هي اللي جابت لنا إحباط.. هو لسه في حد بيتكلم في الإشكاليات دي. لأ وجاية تستعرض عليهم هنا». قالت الصديقة «طب إنتو ناوين تسمعوا المحاضرة الأخيرة ولا إيه؟» فردت عليها: «لأ أنا بصراحة تعبت وزهقت. نفسي أطلع أتمشى شوية في الهوا، داحنا خلاص راجعين بكره». فعقب باهتمام متسائلًا: «أنا كمان مش مستحمل الكتمة هنا.. عايزين تتعشوا فين؟». ردت بصراحة: «يا ريت ما حدش يقوللي ساندويتشات شاورمة من بتاعة الأتراك. عايزين نجرب حاجة جديدة». فاقترحت

الصديقة: «طب تعالوا نتمشى في ميدان الأوبرا.. دا كان شكله حلو أوي الصبح واحنا جايين». ببساطة قال: «ماشي الكلام».

يمشون ثم يصلون إلى ميدان الأوبرا في قلب المدينة العتيقة.

يقول: «روعة.. شوفوا مهتمين إزاي بالحي القديم؟! ولا إضاءة المباني؛ الناس هنا حواليها الجمال في كل مكان»؛ تؤكد: «يا ريت نفضل شوية في المكان الحلو دا»، فتعقب الصديقة: «أنا نفسي أشرب حاجة دافية.. ما تيجو نقعد في مطعم من المطاعم اللي هناك دي.. بس نقعد بره». توافق وتقول: «أيوه بلاش ندخل جوه.. خللينا ع الرصيف»، إلا أن مقاعد الرصيف مزدحمة بالكامل. وفجأة يلمح الرجل منضدة يقوم عنها ثلاثة من الزبائن فينقض عليها قائلًا: «بصوا فيه مكان فضي هناك أهو في المطعم الإيطالي ... تعالوا نلحق نقعد فيه».

يأتي سبتمبر

حين يجيئ الدور على سبتمبر ليستوطن القلب،

يشطره نصفين. نصف يتعلق بأهداب صيف ما وفى بعهوده قط، والثاني يمهد الطريق لأيام مديدة يقصم نهارها السعي في طلاب العلم، ويطاول ليلها الإيغال في الدرس. لم يزل سبتمبر يوزع نفسي بين شجو يتعلق بما كان، وتوقد يترقب ما يكون. يحاسب على الإسراف والتقصير ويلح في الإعداد والتدبير. أتلهى عن الفكر وسياطه بمحاولة إحصاء ما تبقى من صفصافات على الضفاف المسفوحة في ذلك الجزء الضيق من نيل العجوزة. أرنو إلى الكوبري الذي يعبر بأرتال السيارات المتكاثفة إلى جزيرة الزمالك وكأنها قطعان ماشية استوائية تتلاحم لتهاجر مبتدأها في توال وئيد الحركة، مسيّرة تحت لفح الشمس وراء حاد يسوقها نحو نهاية لم تتراءى بعد. يستثير مرأى الكوبري ذكرى محبة عتيقة للآخر المسكين الذي أهدر دمه ذات جنون، أعني كوبري أبي العلا.

أملأ رئتيّ من نسيم العصاري حتى لأكاد أغفو. ألقي التحية على الذكريات وأتأهب أن أعود أدراجي لكنها تأبى معاودة الدخول إلى صندوقها المزخرف. تتشبث بي كالأطفال حين يلحون في طلب الزيادة. أستسلم لرغبتها وأعبر بها إلى الشارع القديم المتعامد على النيل. في عبوري أفكر إن كنت سأسير يمينًا حيث يمتد الشارع ليمر بالمجلس

البريطاني ثم مسرح البالون وسيرك العجوزة؛ أم أتخذ الاتجاه المعاكس وأسير مارة على المستشفيان العجوزة ثم الشرطة وأشتري فولًا شهيًا من محل «نعمة»، ثم أكمل سيري مرورًا ببيت نجيب محفوظ الذي تحرسه خميلة الشرفة من عيون المارة حتى أعبر كوبري الجلاء؟ في تلك اللحظة خطر لي أن كلًا من كوبري الجلاء وكوبري ١٥ مايو يشكلان قوسين كبيرين يغلقان على عمري بينهما. (النيل الجامع المدرسة المجلس البريطاني المسرح السيرك نجيب محفوظ الكوبري) المفردات التي لا تكتب أبجديتي سواها مهما اختلفت الألسن، ولا تعرف خرائطي مفتاحًا غيرها مهما تناءى السفر. صحيح أن واحدًا من القوسين أو كلاهما قد ينفتح بحسب إلحاح الرغبة في الارتحال، فتنبسط الجغرافيا لتصل إلى ميدان المساحة شمالًا حيث معهد جوته، أو ميدان التحرير غربًا بما يضم من مراكز ثقافية ومكتبات ومعارض، أو شرقًا نحو مطلع كوبري السادس من أكتوبر الذي انحصرت رسالته في توصيلي إلى مطار القاهرة أحيانًا، وجامعة عين شمس دائمًا. وهكذا أسعدني العمر وأشقاني بالارتحال بين العوالم، لكنه ارتحال مرهون أبدًا برموز الشارع القديم المتصالب على النيل الحابي: شارع الفالوجة، اسم كبير وذكرى مهيبة ونكسات.

ما إن يفارق الشارع ضفة النيل حتى يستقبله جامع «السلام» بحجمه المتوسط وبياضه الناصع ومئذنته التي تخلت عن الركض وراء ناطحات السحاب التي شيدت بعد أن طالت المدنية تلك البقعة

التـي كانـت مهجـورة حتـى أربعينيـات القـرن المـاضي. في الجهـة المقابلـة تقـع مستشـفى العجـوزة بطرازهـا الإسـلامي الجميـل. في ألقهـما القديـم كان الجامـع والمستشـفى يتناوبـان التحنـان عـلى تلـك البقعـة النائيـة كثـيرة الأحـراش، قليلـة الأنفـس. أحدهـما يطبـب الأرواح، والآخـر يسـهر على سـلامة الأبـدان؛ أمـا اليـوم فيمـوران بالوافديـن مكسـوري الخواطـر ويمتلئـان فقـرًا وأسى، ولعلهـما يتصـبران ببقيـة مـن أمـل قـد يحملهـا النيـل الحـابي رغـم الضجيـج.

أحـاول أن أسـيطر عـلى جذعـي الـدؤوب حتـى لا يسـبقني الخطـو فيجرجـرني وراءه كعادتـه كيـما أمتـع ناظـري بالتجـوال بـين النقـوش النباتيـة صامـدة الألـوان عـلى بوابـة المستشـفى وبـين بضـع شـجرات نجـون مـن الاغتيـال العمـد عـلى الرصيـف المقابـل. يـأتي سـبتمبر فتعبـق أجـواء العصاري برائحـة الجوافـة بعـد انـصراف تلاميـذ وتلميـذات المـدارس المتلاحقـة مـن أول الشـارع حتـى آخـره، فيسـود هـدوء خليـق بـأول أيـام العـام الـدراسي الـذي أهـل. منـذ سـنين ولـت سـلمت بحقيقـة أن المشـتغلين بالعلـم مثـلي يحسـبون تقدمهـم في العمـر بمبتـدأ الدراسـة ومنتهاهـا، وأن الاحتفـال بالعيد المـدون في شـهادات الميـلاد هـو لفرحـة الأحبـة المقربـين فحسـب خصوصًـا لمـن كان مـن مواليـد الصيـف مثـلي. وبهـذا يكـون عيـده الأول هـو البشـارة التـي يظـل أملـه معقـودًا عـلى خيرهـا إلى أن يـأتي سـبتمبر بالثمـرة تامـة النضـج. النصـف مـن سـبتمبر يشـيع عامًـا (دراسـيًا أكاديميًـا) ليولـد آخـر. أمـر عـلى مكتبتـي القديمـة لأشـتري كراسـات، ودفاتـر رسـم وألـوان خشـبية

كـما فعلـت آلافًـا مـن المـرات، لكنـي في هـذه المـرة يقتحمنـي اسـمها وكأني مـا أدركتـه مـن قبـل قـط: «مكتبـة شـهرزاد». تنطلـق منـي تنهيـدة بشـوش وأتسـاءل إن كان سـيكتب لي مـن حظهـا نصيـب. أدخـل المكتبـة وقـد تهيـأت صـورة التلميـذة داخـلي لـشرب تفاصيـل المعروضـات واستنشـاق عبـق الكتـب المصقولـة فتلتمـع العينـان بدهشـة وتوقـد المـشرف عـلى فـك طلاسـم العـالم الجديـد؛ ورق الدفاتـر المزهـر لينصـع بالبيـاض، أقـلام الرصـاص المسـنونة في حماسـة يخالطهـا نفـاد الصـبر، الحقائـب تحتفـي بينعهـا في دلال، ممحـاوات وبرايـات ومقـالم ومسـاطر مختلـف ألوانهـا تديـر رؤوس الأطفـال فتتـوزع رغباتهـم بـين هـذا وهـذا وهـذه ولا يشـبعون. أسـتكمل المشـهد بعينـيّ خيـالي لأرى المرايـل التـي أحببنـا لونهـا الكحـلي بعـد أن غنتنـا فيهـا جميـزة صـلاح جاهـين وطمـي محمـد منـير، الجـوارب القطـن، شرائـط الشـعر، الأحذيـة السـوداء وقـد أحسـن تلميعهـا لأجـل بـدء المشـوار. تحتشـد الروائـح مـع عبـير الذكريـات.

يـأتي سـبتمبر كضيـف تسـتغرب حلولـه قبـل تمـام اسـتعدادك للُقيـا لكنـك سرعـان مـا تألفـه كجـد طيـب مـا إن يـؤدي واجبـه في توزيـع المحبـة حتـى يخـف إلى الرحيـل. في كل سـبتمبر يولـد طمـوح، يتزيـن بألـوان حبـات البلـح المتراصـة عـلى عربـات الباعـة الجائلـين كأهرامـات صغـيرة تتضـوى بكريـم أحجـار كهرمانيـة صريحـة، وحمـراء جريئـة وقانيـة خجـول، وبنيـة خصيبـة غـام لونهـا ليذكـر بطيـب الأرض ودفء حضنهـا، بمـذاق عطائهـا الحلـو، بأبديتهـا وشـموخها كالنخـلات الباسـقات. يواصـل الشـارع طريقـه

مـرورًا بجامـع الحـصري ليتفـرق دمـه بعدهـا في حـواري وأزقـة تشـعبت بـين بيـوت مـن صفيـح ظلـت تتـزاوج وتتكاثـر حتـى تاخمـت الحـي وطوقتـه وفرضـت شرعيـة وجودهـا بإحـكام قبضـة يـد البطـش، وغيبـة ضمـير ولاة الأمـر، وضعـف حيلـة المسـاكين. لا أتبعـه حيـث يمـضي في تيـه لا يـسر الناظريـن ليطلـق زفـرة أخـيرة عـلى بـاب جامعـة الـدول العربيـة -الشـارع أعنـي. أقـف عـلى الناصيـة التـي بهـا بيتـي ومدرسـتي. أبتـاع الجوافـة التـي تحبهـا الحمامـة الشـهباء، والبلـح الزغلـول لليمامـة الصغـيرة- جناحـاي الذين أقسـمت أن لـن ينكـسرا أبـدًا، طالمـا فيّ بقيـة مـن رمـق.

أفكـر أن سـبتمبر هـذا العـام يعـود بي لأول المشـوار، لكنـه كجـد رحيـم، لا يحملنـي إلى تاريخـي وحيـدة، وإنمـا يعمـر قلبـي بالحنـان والوجـل اللذيـن يعرفهـما كل مـن ينقـش ذاكـرة طفـل وشـارع ووطـن. تلـج ابنتـاي عـالم المرحلـة الابتدائيـة، واحـدة عـلى العتبـة والأخـرى عـلى درجـة السـلم الأولى. تختلـف التفاصيـل وتبقـى الـدلالات. أتوسـل للعنايـة الإلهيـة أن تحـرس براءتهـما، وتبقـيَ في العينـين عـلى الجـذوة التـي تشـتعل بصخـب الطفولـة وتوقهـا وتوقدهـا العفـوي لتظـل الشـمس تطـل مـن كولـة المريلـة الكحـلي إلى أن يـؤذن بفتـح القوسـين وعبـور الكوبـري.

عطور من ذاكرة الفقد

يا مسافرة في البحر جايي ودّعك حمّـل سـلامي للهـوا وديـه معـك
لكن بخاف من الهوى ومَـرّ النسيم قلبـي بروحـي يوصلـك ويرجعـك
قلبي بروحي يوصلك ويرجعك

كلـمات جميلـة ولحـن شـجي تشـيع جـوًا غامضًـا ينتـشر رغـم الـدفء الطاغـي المنبعـث مـن صـوت لينـا شـماميان، فيسـتثير مـن داخلـك عطـور الذاكـرة ويحملـك عـلى جناحهـا فتغنـي للفقـد وتتغنـى بـه، ذلـك الغنـاء الآسر.

ينفتـح صندوقـك الخشـبي المـوشى بالأزهـار المحفـورة، فتجـد خبيئتـك غافيـة عـلى مخملهـا: صـور أبيـض وأسـود تآكلـت أطـراف بعضهـا، خطابـات حـال لـون ورقهـا لكـن حبرهـا ثابـت وخطهـا منمـق. مناديـل مـن الدانتيـلا ومفـارش مطـرزة، أو حكايـا بعيـدة ناعسـة مـا بـين الرحيـل والغربـة واللوعة.

ساعة نزولك في الببور لا تفزعي قلبي موتور والبحر من مدمعي
ضلي اذكريني في غيابك وارجعي لزي لقلبي وهو يبقى يتبعك
لزي لقلبي وهو يبقى يتبعك

قد تكون حكاية أسرة لبنانية مهاجرة إلى أميركا بعد أن أعيتها سبل العيش تحت نير السلطان العثماني. توفي رب الأسرة شابًا وخلف وراءه ثلاثة من الصغار في رقبة أمهم صارخة الجمال. ذاقت ماريانة الأمرين ما بين انتهاكات الجندرمة وانقلابات الشباب السوري المطالب بالاستقلال عن الباب العالي. لم تعد تحتمل الرعب وضيق الحال وقررت أن تهرب بصغارها إلى أبعد نقطة على وجه الأرض. سمعت من الخوري بشارة أن أميركا بها فرص لأمثالها وأنه سيرسل معها خطابًا لابن عمه المهاجر إلى بوسطن منذ سنوات فاقت العشر ليعتني بها. تذكرت الحلم الذي راودها يومًا أن تركب القطار مع زوجها وأطفالها ليقضيا عطلة الصيف في بغداد، لكن الحلم تلاشى مثلما تلاشى زوجها مصابًا بالسل. الآن تترك الحلم والقبر و»زحلة» متجهة نحو البحر فتحط الرحال في بلاد غريبة، تطمع أن يجد فيها صغارها بعض الأمان. ترى هل يجري في بوسطن نهر مثل البردوني؟

روحي بسلام يا حياتي بخاطرك ابقي اكتبيلي إن كان جيت بخاطرك
ع الشط فوق الرمل قاعد ناطرك

أو لعلها حكاية الأميرة المنتسبة للخديو، المقيمة في قصرها السكندري المنيع في كنف الباشا الذي ترك نظارة الري ليتفرغ لإدارة أطيانه في «البحيرة»، مكلفًا من السراي بمراقبة القنصليات الفرنسية والطليانية؟

تيمت الأميرة عشقًا بالمشخصاتي الشهير الذي كان يتردد على احتفاليات الجمعيات الخيرية برعاية الباشا ذي الأيادي البيضاء. أما هو فخر صريع البهاء الأصيل فكتب أعذب الأشعار، لكن الباشا رفض عرضه الزواج بالدرة المكنونة رغم وجود فيلا مناسبة وبضعة فدادين برتقال. وكيف تتزوج كريمات البيوت من مصريين؟ لم تحتمل الأسرة الفضيحة فأرسلت الفتاة لتلحق بابن عمها طالب الحقوق بالسوربون، على أن يعقدا القران في الصيف. قالت للهانم إنها ستموت لو حرمت من البحر السكندري، فردت عليها بصرامة من اعتاد ضربات الأقدار «إن البحر هناك مثل البحر هنا، وصيف «تولوز» أفضل للصحة». لم تتمكن إحسان -الحكيمة التي أملى عليها رسائله الأخيرة في مبرة محمد علي- أن تعثر على عنوان الأميرة لتوصل لها الأمانة.

أمـــان أمـــان

لترجعي من البحر تا إرجع معك لترجعي من البحر تا إرجع معك

أم تراها حكاية إبراهيم طبيب التوليد العائد من فيينا إلى يافا بعد أن أتم دراسته؟ ورغم أنه ينتمي إلى وجهاء القوم ومعروف بحميد الأخلاق، لكن أحدًا لم يقبل أن يطبب إبراهيم حريمه. وهكذا ظل يقضي نهاره في القراءة في غرفة الدار التي حولها إلى عيادة. وبعد تمام اليأس حزم حقائبه عائدًا من حيث أتى، متهمًا بالقسوة والأنانية والجحود. لن يفي أبدًا بوعده

لابنة عمه عائشة التي تركها طفلة على مشارف الصبا، ثم عاد ليجدها في ريعان الشباب وها هو يتركها من جديد. لن تعرف قط أن بقلبه لوعة لن يشفى منها، ولن يمهل القدر ذويها ليعرفوا أنه كان على حق حين حذرهم من الركون إلى الإنجليز، وأن وحدهم أبناءها، سيشهدون مذابح العصابات واغتصاب الأرض والتهجير، ويتذوق إبراهيم - حفيدها- ذل أن يتحول أسياد الدار إلى لاجئين في المخيمات.

قلبي موتور والبحر من مدمعي

يزدحم الصندوق بغيرها وغيرها من حكايات السفر الذي -رغم كل عهود العودة- لم يكن يعني سوى الفراق الأبدي.

أمـــان أمـــان

لترجعي من البحر تا إرجع معك لترجعي من البحر تا إرجع معك

الأرنوب يكتب دكتوراة

لا يزال بكاء سارة المتقطع يتردد في أذني،

وأنا أتابعها من النافذة لأتأكد أن المشرفة ستحكم ربط حزام الأمان حول جسدها الصغير بعد أن تركبها السيارة منطلقة إلى الحضانة. لا تزال عيناي تلمحان يديها الممدودتين نحوي في الفراغ في محاولة يائسة للتشبث بي قبل أن يختفي كل شيء وراء دموعي. أنا مجرمة. أم مجرمة. طيبة في التفاصيل لكن مجرمة في العموم. لا بد أولًا من تحرير هذا الاعتراف حتى يتمكن الصباح أن ينتقل خطوة إلى المربع التالي. تمام. أستطيع الآن أن أجري نحو الحمام لأغسل وجهي بعد هذه الصلاة التي أقيمها مع ابنتي جمعا و»قسرًا» يوميًا منذ عام ونصف بالتمام والكمال. لا أنا تعودت ولا هي. مشاعرنا لا تزال تحتاج إلى فطام، رغم أنها تجاوزت الأعوام الثلاثة وأنا تجاوزت الثلاثين. لكني فرضت عليها، أو فرضت عليّ وعليها ظروف ولادة أختها أن تذهب إلى الحضانة قبل أن تتم العامين. كنت واضحة ومحددة وقوية: سيكون من المفيد جدًا أن تتعرف على أطفال في مثل عمرها، وأن تخرج إلى العالم الكبير بعيدًا عن حضني فتنشأ شجاعة ومستقلة وحرة! لم أحسب حساب عصرة القلب مع كل دقة وهي بعيدة. لكن أليس ذلك أفضل لها ولي وللصغيرة مَلك؟

أرتاح كثيرًا بعد دموع الصباح التي يذرفها الصنبور في الحوض. أنظر إلى وجهي في المرآة وقد صارت عيوني أكثر لمعانًا، ووجهي أكثر احمرارًا، وضميري أقل وخزًا، وشعري كما هو -يتمنى أن يزوره المشط ولو كل أسبوع مرة!

لا يزال الصباح باكرًا. وأنا أشعر بحماسة نادرة وإقبال على العمل. لا بد إذن من قنص هذه الفرصة المبروكة للكتابة قليلًا في أطروحة الدكتوراة التي توقفت عن العمل عليها منذ ولادتهم -سارة وملك والدكتوراة!- قبل أن أخرج من الحمام ألمح أكوام الملابس الصغيرة المنقوعة في طبق الغسيل وعليها الصابون ومزيل البقع. كعادتي لم أف بوعدي للملابس. فأنا دائمًا أنقع قطع الملابس الصغيرة في الماء وأعدها أن أعود إليها بعد قليل لأقوم بـ»دعك» البقع التي خلفها الطعام نتيجة إصرار سارة أنها صارت كبيرة بما يكفي لإطعام نفسها بنفسها. وبصفتي أم عصرية أسعد بهذا الفعل الاستقلالي التحرري وأؤيد جهودها التي تفضي إلى أن تحمل التيشيرتات موتيفات جديدة من آثار الملوخية والرز ونقوش البطاطس المحمرة والجبنة النستو، مع تطريز من بذور الطماطم، ولا أنسى البنطلونات والشورتات الملونة التي صارت مبقعة بقعًا غير قابلة للإزالة من آثار المانجو والفراولة والبطيخ، وفعص البرتقال والموز. ناهيك عن الغيارات الداخلية البيضاء التي ترسم المشروبات المنسكبة عليها تشكيلات سريالية بديعة من أول طبقة ملابس وحتى آخرها؛ مهما

خدعوني فقالوا إن هذا الكوب المستورد ذي غطاء الأمان الباذخ سيمنع انسكاب السوائل. مفهوم طبعًا أن ملك تتخذ من سارة قدوتها الأولى والأهم في الحياة وتحاول تتبع خطواتها المباركة على طريق الاستقلال، الأمر الذي يسفر عن الاستغناء عن الملعقة تمامًا وسكب طبق «الرز بالملوخية بالكوكو» في حجر البنطلون. وعلى الأم الذكية الرؤوم في هذه الحالة -بحسب كتب التربية- أن تحافظ على مزاجها رائقًا غير عكر، وتبتلع كل الغضب المتكوم داخلها دفعة واحدة، وإياها أن تحمر عينها أو تظهر في ملامحها وحركاتها ظل استياء تجاه تصرف الطفل، ولا أن تجبره -إنقاذًا لفتافيت الوقت والأعصاب والصوت والملابس والمفروشات- على إطعامه بنفسها حتى لا يكره الطعام ولا يتكاسل عن الاعتماد على نفسه فتضعف شخصيته ويخرج للمجتمع سلبيًا اتكاليًا! ويتطابق ذلك تمامًا مع نصائح الأمهات والحموات عبر التليفونات وأثناء الزيارات: «العيل لازم يعك براحته وإنتو تبقوا تنضفوا وراه. أمال هيتعلم إزاي يعني من غير ما يلغوص؟! صحيح أمهات آخر زمن دول دايمًا كدا روحهم في مناخيرهم ومش صابرين ع العيال». ومالك يا طانط، خلليه يعك. صحيح حضرتك ما كانش وراكي تحضير محاضرات، ولا تصحيح امتحانات، ولا مشاركة في أعمال الكنترولات، ولا كتابة ماجيستيرات ودوركتورات، وكان عند حظرتكم شغالات مقيمات، لكن كله يهون في سبيل حفيدات عظيمات. سريعًا أضع قطع الملابس في الغسالة وأختار البرنامج الذي يستمر ساعتين ونصف، لأمنح نفسي بعض الوقت للقراءة في الرسالة قبل أن أضطر أن أقوم لنشر الغسيل.

أجري بسرعة هذه المرة خارجة من الحمام قاصدة الكمبيوتر فأقابل ملك في الطرقة وقد استيقظت. أستقبلها بما يليق من بشر: «صباح الخير يا لوكا! إنتي صحيتي يا حبوبة. صحيتي بدري ليه يا حبوبة؟!» أدخل أنا ولوكا المطبخ لأعد لنا الإفطار: طبق دافئ لذيذ من سيريلاك القمح بالعسل. فتأكل هي أول ملعقتين باستمتاع وآكل أنا الباقي بالريالة. في المطبخ أفاجأ أني نسيت حلة الشوربة على البوتاجاز منذ الأمس. أسارع بإشعال النار تحتها حتى تغلي وأتمكن من إعادة تدويرها في صنع ملوخية جديدة حيث إن مخزوننا الاستراتيجي من الملوخية قد نفد عن آخره. لا بد إذن من العودة إلى المطبخ لإعداد الطعام في منتصف النهار بعد الانتهاء من إنجاز بعض من صفحات الرسالة، وليكن بكمية معقولة تكفي ثلاثة أيام، أقصد الطبيخ طبعًا، لا أظن أني سأنجز من الرسالة ما يكفي ثلاثة أيام. آخذ نفسًا عميقًا. لا بد من إدارة الوقت إدارة فعالة من أجل التفرغ قليلًا للبحث العلمي. عمومًا أهم شيء في هذه المرحلة هو الحفاظ على الحماسة والتفاؤل والمزاج المقبل على العمل المتفاني. يلمح طرف عيني بعض الصحون التي باتت في الحوض منذ الأمس فأقرر قرارًا واعيًا أن أرجئ غسلها لحين العودة ثانية إلى المطبخ وقت إعداد الطعام.

أتوجه مع ملك أخيرًا إلى غرفة المعيشة. أفرش لها المرتبة التي صنعتها والدتي لتلعب عليها. أجلسها ثم أحضر صندوق اللعب الكبير وأميله قليلًا فتندلق بعض الألعاب دفعة واحدة أمامها. تضحك لوكا

وتكرر. أترك الصندوق إلى جوارها لتستكشف بنفسها ما لا يزال مخفيًا بداخله. الآن أشغل الكمبيوتر مطمئنة أني سأعمل على الأقل ساعة في هدوء.

لم أكد أفتح الملف حتى مشت ملك نحوي، نعم فقد بدأت تمشي بمفردها منذ عشرة أيام، وأخذت تخبط على حجري. حضنتها ثم طلبت منها أن تعود إلى ألعابها. لم تستجب. نهضت من مكاني وذهبت إلى المرتبة وقلت لها: «شوفي الأرنوب بيقول إيه؟ بيقول عايز لوكا. تعالي يا لوكا العبي معاه ياللا عشان ما يزعلش». جاءت لوكا لتهدئ من خاطر الأرنوب، فعدت إلى الكمبيوتر وبدأت في القراءة. «ياه ده لسه فاضل كلام كتير أوي مانكتبش. بس أهم حاجة إني خلصت الجزء النظري بتاع المقدمة قبل ولادة سارة. يتبقى إذن الجزء التطبيقي ودا سهل عشان أنا جمعت المادة العلمية بتاعته خلاص ومش فاضل غير إنه يتكتب. هي الرسالة من غير المقدمة وفصل النتائج تعتبر تلات فصول بس. بسيطة. إن شاء الله تنقضي. إيه يا لوكا جيتي تاني وسيبتي الأرنوب ليه؟! أقرر أن أجلس لوكا على حجري وأواصل القراءة بتركيز عال لمدة ثلاث دقائق كاملة. تشد لوكا شعري لأنظر لها. أفعل ثم أواصل القراءة. تشده ثانية. أستخرجه من قبضتها الصغيرة وأقول بنبرة حادة: «وبعدين؟ بس بقى!» تزمجر لوكا وإذا بكفها الصغير يطرقع على خدي. أمسك يدها بقوة وأضربها عليه ضربة متوسطة الشدة وأقول لها بحسم يميل للصراخ: «كدا كخ خالص فاهمة؟ كخ كخ كخ!». تكرر

لـوكا تسـديد صفعـة جديـدة فـإذا بي أحملهـا بـكل غيـظ وأرزعهـا بقـوة عـلى المرتبـة ثانيـة وأجـز عـلى أسـناني حتـى لا أعضهـا ثـم أصرخ فيهـا: «أنـا مـش قلـت لـك عيييـب؟ عيـب عيـب عيـب عيييـب!» تنظـر لي في ذهـول لمـدة ثـوانٍ معـدودة ثـم تقلـب شـفتيها نحـو الأسـفل وتقطـب جبينهـا وتسـتعد لافتعـال الـصراخ والبـكاء الجـاف أولًا ثـم -في جـزء مـن الثانيـة- لا أعلـم مـن أيـن تنفجـر أنهـار متدفقـة مـن دمـوع التماسـيح. أتركهـا في نشـيجها المحـترف وأعـود لقـراءاتي وأبحـاثي.

«الأمومـة والإحسـاس بالذنـب صنـوان لا يفترقـان». قـرأت هـذه العبـارة العبقريـة في إحـدى المنتديـات الأمريكيـة الخاصـة بالأمهـات عـلى الإنترنـت، وحفظتهـا عـن ظهـر قلـب اقتناعًـا منـي بفلسـفتها العميقـة وبلاغتهـا الظاهـرة، ولذلـك قمـت بترجمتهـا إلى العربيـة ترجمـة رصينـة، وأكررهـا لنفـسي -في كل الأحيـان- منـذ الأسـبوع الأول لـولادة سـارة. وأقـول الحمـد للـه أني وجـدت في هـذه العبـارة مـلاذًا يطمئننـي أنـه -عـلى الأقـل الأمهـات الأمريكيـات- يشـعرن مثـلي بمشـاعر مضطربـة مأزومـة تجـاه المسـئولية التـي ألقيـت عـلى عاتقهـن. إذ أني وجـدت الأمهـات المصريـات -أدام اللـه عليهـن نعمـة الرضـا التـام عـن الـذات- يمارسـن دور الشـمعة التـي تحـترق ثـم تحـترق إلى أن تـذوب تمامًـا في الشـمعدان بـكل الحـب والعـزم عـلى مواصلـة الاحـتراق، فيفيـض اللـه عليهـن الحكمـة الموفـورة والـرأي الصـواب والثقـة التامـة في امتـلاك الحقيقـة المطلقـة خصوصًـا فيـما يتعلـق بأطفـال الأخريـات. فهـن دائمًـا يعرفـن بشـكل قطعـي مـا ينبغـي عـليّ عملـه بـدون

أن يؤنبهن ضميرهن أنهن لا يطبقن نفس النصائح على أبنائهن. «سيبيها تعيط؛ الأطفال في منتهى اللؤم». أنا طبعًا لا يؤنبني ضميري الآن على ترك لوكا تواصل كونشيرتو البكاء. إذ إنه من أفضال الطفل الثاني أيضًا إكساب الأم مناعة ضد تأنيب الضمير، وكل أشكال الإحباط والخذلان وخيبة الأمل. وذلك لأنه بعد أحد عشر شهرًا كاملة من التعب والسهر والرضاعة وتغيير الحفاضات والتحميم والتكريع والقشط واحتمال الأنواع المختلفة من الصراخ الذي يخرق الآذان والتمييز بمهارة فائقة بين صراخ المغص، وصراخ الجوع، وبكاء ما بعد التطعيم وَزَن الملل وزن التسنين، ناهيك عن الاستمتاع بالمعزوفات من الموسيقى الخفيفة التي تتراوح بين النهنهة والشحتفة والهفلقة! الأم الفاضلة تفعل كل ذلك بصبر منقطع النظير ولا تنتظر جزاءً ولا شكورًا ولا تحبط أبدًا أبدًا -ما هي خبرة بقى- أن أول كلمة ينطق بها الطفل في حياته تكون دائمًا وأبدًا: ب االاب ه! وعليه فإن لوكا -قولًا واحدًا- مش صعبانة عليّ خالص.

يهدأ صراخ لوكا لكن بكاءها يستمر. تنظر إليّ بعينين معاتبتين نظرات تفجر المياه من الجبال. أقترب منها وأجلس على الأرض أمامها وأقول بحسم: «ما تعمليش كدا تاني». ثم أمسك كفها وأقضمها بين شفتيّ حتى لا تجرحها أسناني. ترمقني بنظرة ذاهلة وبعدها -أيضًا في جزء من الثانية- تجف أنهار الدموع وتبدأ في ضحك لذيذ متقطع ينقلب إلى حالة طاغية من الكركرة العذبة مما يدفعني إلى مواصلة دغدغتها وقضمها والاستمتاع بضحكها الذي يفط من كل جسدها. أحضنها وأعاود

دغدغتها بيدي وبأرنبة أنفي في بطنها وقدميها الصغيرتين؛ فتفجعني رائحة الجورب الذي لم يمر على لبسه أربع وعشرين ساعة. أخلعه من قدميها وأقول لنفسي ليتني تداركت ذلك قبل تشغيل الغسالة. لكن لا بأس ممكن أن أنقعه قليلًا في طبق الغسيل ثم أدعكه بسرعة حين أخرج باقي الغسلة وأنشره معها. أشم قدمها. الحمد لله رائحتها معقولة. من الممكن إذن الصبر عليها حتى موعد حمام المساء. أزغزغها فيتعالى ضحكها ثانية. أتمرغ أنا وهي على الأرض وأرفعها ثم أخفضها نحوي وأضحك كثيرًا معها. «لعله خير» أقول مثل جدتي حين تضبط نفسها تضحك. فجأة أتذكر الشوربة على النار فأعدو نحو المطبخ لأجدها قد تبخرت تمامًا وعبأت البيت برائحة مرق الدجاج. لكن الحمد لله إني تداركت الموقف قبل أن تشيط الحلة وتتفحم! لا بد إذن من الطبخ بدون شوربة الدجاج. كيف نحل هذه المعضلة؟ لا مفر من عمل شوربة خضار للأطفال. ثم تورلي بالمرقة الفورية لنا. ولا أنسى الأرز. وبالمرة أعمل كفتة رز تتحط في التورلي وأشيل شوية في الفريزر لوقت زنقة. لن أستطيع إذن أن أكمل الصفحة التي بدأت في قراءتها اليوم من الرسالة. لا بأس. أهم شيء إن الواحد يبدأ ويحافظ على الحماسة والمزاج المتفائل. ثم إني في الغد سأكون قد انتهيت من الطبخ والغسل ونشر الغسيل، ولن يكون أمامي سوى جمعه وتطبيقه وتوزيعه. آه بس بكره معاد أم حسين عشان تنضيف البيت. طب معلش. خلي الموود المتفائل يستمر لبعد بكرة. بعد بكرة كلية، لا بد من الذهاب لأنها المحاضرة الأخيرة التي سأتحدث فيها عن الامتحان النهائي. ماشي. إن

شاء الله ألحق أكتب الفصل الأول قبل أن ينزل اسمي في كشف أعمال الامتحانات. العمل على الرسالة سيكون أفضل في الإجازة الصيفية لأنه فقط سيتعين عليّ الخروج لتمارين سارة في النادي. سيكون من الأساسي أن تتعلم السباحة، وسنشترك في الجمباز بحسب نصيحة ذوات الخبرة ليبني جسدها بنية سليمة. وربما اشتركت لها في الباليه لو أنها أحبته. سنرى. لقد كان حلم عمري أن أرقص باليه. لتجرب هي الباليه ولأواصل أنا الرقص على الحبل. والله المستعان.

عدت إلى الكمبيوتر لأغلقه فوجدت ملك تلعب بمنتهى السعادة والهدوء مع الأرنوب. سألتها «تيجي يا لوكا معايا نعمل المَم؟» لم تبال ولم تأت ورائي. نظرت لي نظرة واثقة خاطفة وابتسمت ربع ابتسامة ثم عادت للأرنوب تلعب معه بالكورة.

من دفتر أحوال مدينة الظلال

من أين يأتي النور؟

لسبب لا تعلمه تلفظ من رحم الجنة. تولد غريبًا ووحيدًا. تصرخ طلبًا للنجدة. أو حتى تفسير. لا يأتي. تنكمش في ذاتك. تستدعي ذكريات الرحم الأول. ترتجف. عناية ما تدثرك. يتسلل دفء عبر شقوق العتمة والخوف. تستكين. تتجاسر على فتح عينين أطبقهما الرفض. نور باهر يغبش النظر. تسرع بإطباق الجفون. لكن ما هذا الذي رأيت. تعيد فتح عينيك.. ببطء وحذر. تسرع بإغلاقهما حتى لا ينسال النور فيجتاح الحصن الخاوي. بين النور والعتمة تتراءى ابتسامة حنون ثم تتوارى. أنامل تمسد الجلد المذعور ليهدأ ثم تختفي. صوت ينادي باسمك. يبدو أنه يعرفك. لكنك لا تعرفه. يتباعد. تحاول أن تناغيه. يتكسر النداء بين أصوات تعرفها وكلمات لم تتخلق بعد. يناديك. تصخي. من أين يأتي النداء؟ لا مفر من متابعة الصوت. تكف عن التكور والانكماش. تفتح عينيك لكنك تتوقى النور. تحبو وراء الآثار. تتساند على الأدلة. تتجاسر على الوقوف. ما أشجعك وما أبرعك! تتلمس أولى خطواتك. تنفتح زوايا الرؤيا من كل اتجاه لكنك أبدًا لا تنظر صوب النور. من أين يأتي النور؟ تتبلبل أصوات وكلمات. يعجز كلامك عن الكلام. تصم آذانك عن اللامعنى. في السكوت تسمعه يناديك باسمك. من ذا الذي يعرفني ولا أعرفه؟ من أين يأتي النداء؟ تعدو. يتسارع

عـدوك كلـما خفـت الصـوت. تجـري قبـل أن تطبـق العتمـة عليـك. تلاحـق ظـلالًا لا تتراقـص إلا بعـدوك وتسـتكين كلـما سـكنت. تحـاول اصطيادهـا بدثـار المهـد. يفـر الوهـم مـن شـباك البراءة. ليـس في الوقـت متسـع. لكـن الحـيرة تجلـس لالتقـاط الأنفـاس المبهـورة. مـا زال نـور يـتراءى. وعنايـة مـا تسـقي الشـوق اللاهـث. مـن أيـن يـأتي النـور؟

***

دنيا

كان وجههـا جميـلًا بمـا يفـوق الوصـف، كنـت أتأملـه كل الدهـر الـذي كانـت تحملنـي فيـه فأشـعر بـدفء وأمـان. أمـا عيناهـا فكانتـا توحيـان بالثقـة المطلقـة. لكنهـا ذات مـرة وضعتنـي عـلى الأرض ولم تدثـرني بعطـف. ذهبـت مـع نسـيم وهبـت ريـاح. أفرغـت مـا في جـوفي مـن بـكاء ثـم نظـرت حـولي، وبـدأت أفهـم التقلبـات. وأن هنـاك أمـس ويـوم وغـد. وكنـت متأكـدًا أنهـا سـتأتي في غـد لتدثـرني، وأني سـأطمئن وأنـام.

***

أفول

كان مـن البسـطاء الذيـن خرجـوا في إثـر الغزالـة التـي شردت في الجبـل. صعـدوا قبـل أن يحملـوا زاد الطريـق، ونسـوا مـا حـكاه الأسـلاف عـن الذئب.

حـين غربـت الشـمس تلـون الأفـق بالأحمـر القـاني، وأدرك أهـل الـوادي أن مـن خـرج لـن يعـود، فآثـروا السـلامة. أحكمـوا إغـلاق أبـواب الـدور إلى

أن يمـر قطيـع الذئـاب.

أدرك الحكيم أنهم سينتظرون في مخبأهم ألف عام أو يزيد.

***

غُلب

وقـع الأمـر في زمـان السـحب السـود. بـلا حسـبان ربّـت كبـير كتـف صغـير وأعلـن أنـه مـن الآن فصاعـدًا سـيعطف عـلى الصغـار. لا كان الصغـار يعيرونـه التفاتًـا مـن قبـل، ولا كان الكبـار يعدونـه منهـم. ورغـم ذلـك هلـل النـاس وطـيروا الخـبر في الأنحـاء زاعمـين أن العلامـة قـد ظهـرت وأن السـحب آخـذة في الانقشـاع.

أضـاف الحكيـم في رقاقتـه: «كان حالهـم يدعـو إلى الرثـاء بأكـثر مـما كانـوا يتصورون».

***

بصيص

حرمهـا نـور عينيـه فأظلمـت دنياهـا، وانطلقـت في تغريبـة طويلـة الأمـد، بعيـدة الغـور، تقتنـص بعـض الضـوء لتتنفـس. تاهـت. تعلمـت كيـف تحـك حجريــن لتتقــد شرارة. وكيــف تجمــع الحطــب ثــم تشــعل أواره. وكيــف تصنـع مرايـا تجلوهـا باسـتمرار لتظـل مصقولـة. لمـا عـادت بشموسـها كان قـد اختبـأ في ركنـه المظلـم. مـدت لـه شـعاعًا يحـل وثاقـه وأطلقتـه إلى تغريبتـه بسـلام.

***

نصيب ونصيب

النصيب الذي رضيت به لم يرض بها. حمل أغراضه ورحل عن الدار فعاشت فيها وحيدة، تسقي بدموعها حوضًا من الأزهار الدمشقية مختلفة الألوان. حين أينعت الأزهار طرق باب دارها المهجورة نصيب يمتطي جوادًا فضيًا؛ يضيء جبينه بالبشارات، وتفوح منه رائحة المسك ويزدان بحلل العزة. لم تصدق أن النصيب لها. لا يمكن أن يكون قد جاء بعد أن تهدمت وتغضنت. خشيت أن ترضى به وملأت حلقها غصة الخنجر القديم. استكانت إلى قناعة أن الدنيا تغرر بها وأن عليها الثبات بدلًا من الانخراط. صرفته في تخاذل. غادرها دون إلحاف. ظلت في الدار المهجورة لكن الدمع كان قد جف في العيون فذبلت الأزهار الدمشقية. صاحبت الجدران إلى أن طواها أديم الأرض كما يطوي كل البشر ويبقى الحجر شاهدًا على حكمة الحكماء وغفلة الغافلين.

***

شمس الدين

أشرق نهار متفرد يحمل بضعة نسائم باردة. على المعبر تعمد الغلام الغرير أن يصطدم بالشيخ الواثق، ثم مر من جواره ولم يبد أسفًا. أدرك الشيخ من فوره أن أمرًا يريب الغلام فناداه، وألقى عليه السلام.

رد الغلام منتشيًا: «تركتك تبادرني السلام، كحال أي مدين لدائنه».

رمقه الشيخ بنظرات جادة محاولًا أن يتذكر دون جدوى فعاود السؤال: «وفيم أنا مدين لك؟» ثم قرر: «نحن لم نلتق من قبل، وعمري ضعف عمرك!»

رد الغلام وقد علت وجهه أمارات النصر: «صحيح، ففضلي عليك سبق مولدي، وأعني به فضل والدي».

تفرس الشيخ في ملامح الغلام برهة ثم خمن إلى من ينتسب لكنه أسرها في نفسه وتظاهر بالجهل: «ومن والدك؟»

ابتسم الغلام بعد أن أدرك أنه يوشك أن يسدد للشيخ ضربة قاصمة: «الذي علمك كيف تحمل القلم».

تأكد الشيخ من صدق ظنه في الغلام المسكين، ولم يشأ أن يسلبه نصره ولا أمانه. أطرق ودمعت عيناه، ثم رفع رأسه مؤكدًا للغلام: «صدقت. فضل أبيك عليّ عظيم. ولهذا سأظل ممتنًا لك لآخر عمري». ثم أشار مودعًا: «في أمان الله يا غلام».

لمعت عينا الشيخ بعد أن مضى الغلام لمعات أسى. ثم ابتسم وحمد الله أن قواه على شيطانه الذي وسوس له للحظات أن يفشي السر. وأن يخبر الغلام أنه لم يقرأ على والده. ولم يخبره أن الحية التي رباها والده وأفتى بوجوب تركها ترعى حتى لا تنتشر الجرذان، قد أكلت دجاجات الشيخ، ودجاجات عدة بيوت في القرية. إلا أن الشيخ وبضعة من العارفين رأوا تركها توقيرًا للسيد الغابر أبي الغلام. رفع الشيخ رأسه

للسماء وقال «الحمد لله الذي هدانا لهذا». ومضى.

ثم إن زهرة دوار الشمس في الحقل المجاور ابتسمت وظلت تتبعه أينما حل أو ارتحل.

***

جبل البللور

جاء زمان تداول فيه الناس حكايات سائرة يتقوون بها على احتمال انتظارهم الطويل في قلب الكهف المعتم ومنها قصة الضفدع الذي ظل يصعد جبلًا بينما تستنكر فعلته سائر ضفادع المستنقع وتسخر منه. ولما وصل أعلى الجبل وجد نبعًا سائغًا وزهورًا على ضفتيه وعاش في وئام. وحين حاولت طيور النبع أن تتحدث إليه وتسمع حكايته اكتشفت أنه أصم. ولولا هذا الصمم لربما استمع لسخرية أقرانه من الضفادع واستسلم للعيش في القاع. وهكذا تعلم الفتى ألا ينصت لسخرية الآخرين ويمضي في طريقه المرسوم. وقرر أن يصعد إلى قمة جبل البللور لأن -بحسب قصة الضفدع- الشمس هناك أقرب وأدفأ. ولأن الدنيا في الأعالي تتلون بألوان سبعة. وحين أخبره الناس أن الشمس في الأسفل مثل الشمس في الأعلى وضع أصابعه في أذنيه ومضى في طريقه وبدأ في الصعود. كان كلما ارتفع عانى وعورة الطريق وبرودة الأجواء. وكلما خامره اليأس تذكر الضفدع فواصل الصعود. حتى لاحت قمة البللور تتلألأ في الضوء فأيقن أنه اقترب.

تناقل الأقحوان نبأه، فعرفت الفراشات أنه التف في البياض، وأقام في قلب البللور متوحدًا مثل إله.

***

زنبقة بيضاء

قال لها رجل النهر إنه سيرحل ليفيض في مصرف البلدة القديم، ورجاها أن تذهب معه. استنكرت أولًا لأن المياه ركدت في المصرف القديم منذ زمن بعيد، فاستقرت الطحالب، ونمت نباتات متسلقة، وتوطنت حشرات وزواحف. أكد: «ولهذا وجب الرحيل. لتجري في المصرف مياه جديدة» ووعدها أن تكون ذات شأن عظيم إن هي رافقته. صدقته كما تفعل دائمًا ورحلت معه مستبشرة.

حين وصلا هالها حال المصرف. وقفت خائفة على الحافة. قال رجل النهر مشجعًا: «لا بد من الخوض في الوحل». ردت متوجسة: «لا أنا بلقيس ولا أنت سليمان» كالعادة جاءها صوته الواثق سريعًا: «لست سليمان، ولكنك ذات الساق الطويلة والكعب العالي. ولو خضنا معًا سيستحيل الوحل إلى قوارير. صدقيني». صدقته ثم أغلقت عينيها وتبعته. حين وصلا إلى منتصف المستنقع أفلت يدها. فتحت عينيها وتلفتت يمينًا ويسارًا لكنها لم تجده. نادته فسمعت رجع صوتها يتردد في الأنحاء. حدثت نفسها أن تنتظره فطال انتظارها حتى بزغ القمر. ظلت تبكي الفقد والغدر طوال الليل حتى أنهكها البكاء فنامت مع شروق الشمس. وهكذا ظلت كل ليلة تبكي مع الغروب حتى يتنفس

الصبـح فتنـام.

كان القمـر في عليائـه يشـم عبيرهـا الآسر، يحـاول كلـما نـزل واحـدًا مـن منازلـه أن يخبرهـا أنهـا تـزداد بهـاء مـع ذرف الدمـوع، وأنهـا -بعـد أزمنـة كثـيرة- سـتتوج سـيدة للنقـاء. وكانـت الشـمس حـين تـشرق تـود لـو تخبرهـا أن رجـل النهـر قـد صدقهـا القـول، وأنهـما يشـقان معًـا -رغـم البعـد- عمرانًـا سرمديًـا، سـيظل محفـورًا عـلى الأعمـدة المقدسـة.

لكن لا القمر عرف لغتها ولا الشمس أفلحت في إبلاغها الخبر.

***

تعثر

هكـذا أنـت. دائمًـا مـا تـسرع الخطـى. تنتقـل بـين الزوايـا الأربـع وتظـل لا تـراني. تصُـفّ سـيارتك في الجـراج وتسـلم عـلى هـذا بينـما تحـادث ذاك عـلى الهاتـف، ثـم يتحلـق حولـك أصنـاف الطـلاب والمريديـن، فـلا يتركـون لي بينهـم مـكان. تخـرج مـن اجتـماع لتحـضر نـدوة فتصـور لقـاءً مـع القنـاة الثقافيـة ثـم تخطفـك المطـارات. أيـن أنـا مـن كل ذلـك؟ في البدايـة حاولـت كثـيرًا أن أطـرق بابـك كـما يفعلـون حتـى أعيتنـي الحيـل. ولهـذا اضطـررت لاقـتراف فعلتـي. أرجـو أن تتفهـم أننـي لم أتعمـد إطلاقًـا أن أوذيـك حـين مـددت سـاقي في طريقـك فجـأة لتتعـثر بي وتقـع أمامـي. عاونتـك في جمـع متعلقاتـك التـي تناثـرت حولنـا، مسـحت خطًـا رفيعًـا مـن دم سـال عـلى وجنتـك وقدمـت لـك سـيجارة مـن حقيبتـي، بـل إني أشـعلتها لـك، رغـم أن

اللياقة كانت تقتضيك أن تشعل أنت سيجارتي. الفرصة سانحة الآن كي يتعانق الشريطان الأبيضان لحظات عميقة قبل تلاشيهما. والآن أرى أنه صار من المناسب -وقد تركنا كل الأشياء التي تبعثرت مكانها على الأرض وبدأنا حديثا معتقًا- أن ترتديني عوضًا عن نظارتك التي انكسرت حتى لا تتعثر مرة أخرى.

***

حنين

حرّق الحنين جوفها فسعت أن تبلله ببضع من قطرات عصير الليمون المنعنع الذي امتازت به الجدة الواحدة التي ما عرفت سواها نبعًا متدفقًا لعطاء لا يعطله نصب، وأحضان معبقة بعرق الكد التي تتمازج مع روائح الصابون النابلسي ومربى النارنج وحكايا البلاد البعيدة المحمولة على وريقات شجرة الياسمين التي تتضوى نواراتها أسفل النافذة في هدأة ليالي الصيف البسّام. طوت الريح صفحة الزمن البريء ونقلتها ورقة مصفرة تحملها الأعاصير بين ركام الغدر وأكوام الخطوب. قررت ذات صحوة أن تحاول لمرة أخيرة فتعود بعقارب الساعة سنين للوراء لتقابل الجدة وتطلب المشورة في أيام صار الكل فيها ناصح غير أمين. تجهزت للزيارة بارتداء عباءتها الحمراء التي اكتسبت لونها المميز من طول كظم الغيظ واحمرار العيون في نوبات البكاء. وانتعلت خفي حنين اللذين بقيا معها بعد أن بليت سائر النعال من طول السفر في مشاوير الخيبة، ثم أخذت سلتها العامرة بطيب الذكرى وبحثت عما

يمكن أن تقدم هدية للغالية طيبة الثرى. نقلت النظر بين جدران بيتها الخاوي على عروشه إلا من أطلال الدفء الغابر. استقر رأيها أخيرًا أن تضع في السلة شال جدتها المخملي تلف فيه قلبها المثقل بالخذلان. دخلت الغابة السوداء. ظلت من الذئب المكير على حذر. خاضت في أوجاعها ففقدت فيهما خفي حنين. سارت عارية القدمين على أشواك الطريق التي جرحت ثوبها فنزف حمرته على قارعته. أضناها الوجد لكنها ظلت تسير. تتعثر لتنهض قابضة على جمر خبيئتها الناعسة في السلة. وصلت أخيرًا إلى شاطئ بحيرة العمر. نظرت إلى صفحتها فما ميزت انعكاس ملامح وجهها بين طحالب الماء الآسن وبضع زهرات من ورد النيل الجميل الغدار. أجفلتها حقيقة أنها ما صارت تراها. اضطربت. فكرت أن تغسل ماء البحيرة بمدد من نبع الدمع. لكنه كان قد جف في زمان الشح. تحيرت. حين قارب نسر الشك أن يحط بجناحيه على رأسها ألقت حجرًا في البحيرة الراكدة عله يطلق بعض الأشواق من أصفادها. كركر الماء ودوم بضع دوامات ثم عاد لسكونه القديم. ابتسمت لما جربت. ألقت الحجر الثاني بقوة أكبر. فكركر الماء أعلى ودوم دوامات أكثر. تهللت لما عرفت. ألقت ثم ألقت، فتفجر الدمع ثانية من صخر النبع وانثال يروي المآقي التي أجدبها زمان الشح. صار الماء يدوم ثم يتضام فينتشر ثم يزوم فيزمجر ثم يتعالى يتضافر فينهمر هائلًا مهيبًا رهيبًا. الموجة تلد موجة تزأر ثم تلطم خد الشاطئ العتيق فيجتاح الملح الطاهر عطن الطحالب وجفاء الزبد. سعدت رغم الرهبة. كلت فتوقفت عن رمي الأحجار لكن الماء لم

يـزل يزمجـر ويـدوم دوامـات صـارت تتعـالى فتحـوم معهـا الريـح وتـصرصر مقتلعـة أشـجار الصـبر تطوحهـا في كل حـدب وصـوب. شرعـت الأرض تتزلـزل فتفـور المـاء بألسـنة مـن لهـب. انشـقت دوامـات الإعصـار عـن مـارد تنـين نفـث فيهـا نـيران غضـب ملـوك الجـان. لبسـها ذعـر وشـد إزاره حولهـا قابضًـا جاثمًـا فـما اسـتطاعت الهـرب. سـقطت لكنهـا لم تجـثُ. ألقمتـه حجـرًا أطفـأ نـار عينـه اليـسرى فـزاد عويلـه. بالحجـر الأخـير أطفـأت نـيران عينـه اليمنـى فنبتـت ألسـنة اللهـب مـن جوفـه وهـو ينتحـب في عـماه. صـارت البحـيرة تغـلي بالحمـم وتسـتعر، والأمـواج الجبليـة تلطـم الشـطآن بالبراكين. سـقطت الخبيئـة مـن السـلة فرمـت المـارد فـإذا النـيران تسـتحيل بـردًا وران سـكون. ابتهجـت واقتربـت مـن البحـيرة فـإذا ماؤهـا زلال. لم تسـتبن ملامحهـا في المـاء الرائـق لكنهـا رأت سـنونوة شربـت حتـى ارتـوت، ثـم حلقـت نحـو الشـمس عـلى جنـاح ريـاح تتضـوع بعبـق النارنـج والياسـمين.

***

صديقتان

كانـت الأولى تعتقـد أنهـا أعلـم مـن الجميـع- وكانـت عـلى حـق. لكـن ثقتهـا المطلقـة في معارفهـا وجهلهـم لم تزدهـا إلا امتعاضًـا وإحجامًـا. وكانـت الثانيـة عـلى نفـس القـدر مـن المعرفـة والقـدرة، لكنهـا كانـت تقيـس محيـط جهلهـا إلى بحـر علمهـا فترتـد خائبـة. وهكـذا جمعهـما اليـأس والتمـرد المكتـوم فاتخـذا مـن المقعـد المتـاح عـلى قارعـة الطريـق جلسـتهما المفضلـة. تفـضي واحدتهـما إلى الأخـرى، تراقبـان العابريـن وتنتقـدان أوجـه القصـور،

وتطـوران معًـا فرضيـات عـلى قـدر كبـير مـن الأهميـة في فلسـفة العلـم. لكنهـما ظلتـا تخشـيان عـلى علمهـما الرفيـع مـن الدخـول إلى المضـمار بـين جمـوع المتنافسـين.

***

منة

صفـوف الوجـوه تبـدو متشـابهة وهـي تشـدو بنفـس الغنـاء الشـجي. سـيتعين المـرور بينهـا صفًـا صفًـا، رغـم غمـر القلـق. إنهـا بينهـم. هكـذا يحدثـك قلبـك محـاولًا مقاومـة الظـلال. لـن تجدهـا أبـدًا في الصفـوف الأولى ولا بـين المتطاولـين في الصفـوف الأخـيرة. وبالتأكيـد لـن تجدها بـين المتدافعين نحـو المقدمـة، ولا بـين طويـلات الشـعر عاليـات الصـوت. أيـن هـي؟ تعـاود البحـث المـرة بعـد الأخـرى. ترتحـل آيسًـا ثـم تعـود آمـلًا منهـكًا. تشـعل قلبـك سراجًـا وحيـدًا يدلـك عـلى مكانهـا. هـل هـي تلـك التـي تشـدو مـع المنشـدين، تبتسـم بسـمتها الخجـول؟ لعلهـا هـي. تلـك التـي ترسـل نظراتهـا في الفضـاء الفسـيح منتظـرة إيـاك. تلتقـي نظراتكـما، فيـشرق وجههـا الغنـي عـن الزينـة، وتضحـك عيناهـا غـير المكحولتـين. لقـد عرفتهـا إذن. هـي أيضًـا قـد عرفتـك.

في قاعة المرايا

قررت أن تعد شوربة البصل،

وتخبز فيليه السمك المجمد، مع البطاطس والسبانخ في الفرن. وقد تحمر بعضًا من مكعبات خبز التوست لو اتسع الوقت بعد أن تفرغ من زينها التي اعتزمت أن تضعها بلا مكابرة، بل وبكثير من الثقة. ارتاحت لهذا الاختيار بعد التوتر الذي اعتراها منذ وصلتها رسالته في الصباح الباكر. لم يكتب الكثير. قال إنه سيعود اليوم من بولندا وأنه يريد أن يمر عليها ليعطيها بعض السيديهات من أعمال شوبان جاء بها من هناك. فلما اقترحت أن يلتقيا في الكلية بعد عدة أيام حتى لا يتكبد مشقة المشوار، أكد أنه يريد أيضًا أن يستعيد دراجته التي تركها لها لأنه سيحتاجها لقضاء بعض المهمات قبل أن يبدأ الفصل الدراسي الجديد.

ظلت راقدة على فراشها ساعة بعد انتهاء هذه المحادثة القصيرة التي التقيا فيها على تطبيق الهاتف الذكي. لم يكن قد تواصل معها منذ سافر. حاولت أن تطرد من ذهنها الفكرة التي خامرتها بأنه اشتاق إليها وأنه يريدها أن تكون أول من يرى في ألمانيا حين يعود اليوم مساء. أخجلها الخاطر حتى كادت الدماء تتفجر من وجنتيها، بينما صمتت شقشقات العصافير على أشجار الشرفة احترامًا للطبول التي

بـدأت تقـرع قلبهـا منـذرة بـأن الحـرب المؤجلـة باتـت وشـيكة.

تقلبـت يمينًـا ويسـارًا في محـاولات بائسـة لمنـع التقـاء المتصارعـين. غطـت رأسـها بوسـادتها. وقفـت عـلى رأسـها وعلقـت قدميهـا في الهـواء بضعـة دقائـق قبـل أن تنهـار مـرة أخـرى عـلى الفـراش محاولـة أن تسـتمطر بعـض البـكاء. وأخـيرًا استسـلمت لفيضـان الشـوق الـذي اجتاحهـا فأغرقهـا. نعـم. لقـد اشـتاقت إليـه كثـيرًا؛ ذلـك الجرمـاني الأصيـل الـذي تجـري في عروقـه دمـاء بـاردة. ثـم إنـه ريفـي مثلهـا وإن اختلفـت الأريـاف. تبًـا لـه. ليـس في كلماتـه أيـة مراوغـات ولا في تصرفاتـه مـا يـشي أنـه يبادلهـا إحساسـها العـارم، رغـم أنـه لا يتحـدث لأحـد في هـذه المجـرة كلهـا مثلـما يتحـدث إليهـا ولا حتـى إلى «إيفـا».

كيـف حـدث هـذا؟ وكيـف صـارت ابنـة السـنبيلاوين متيمـة بمارتـن ابـن قريـة إيسـلينجن القريبـة مـن مدينـة شـتوتجارت؟ لقـد حصلـت عـلى منحـة لتقـضي سـتة أشـهر تجمـع فيهـا المـادة العلميـة لرسـالة الماجيسـتير حـول أعـمال شـاعر الرومانتيكيـة الألمـاني «يوزيـف فـون آيشـيندورف». ورغـم أنـه لم يكـن مطلوبًـا منهـا الانتظـام في محـاضرات البروفيسـور ألتهـاوس المشـارك في الإشراف عـلى رسـالتها، فإنهـا كانـت حريصـة عـلى ذلـك، فتلـك هـي وسـيلتها الوحيـدة للاقـتراب مـن الألمـان والتحـاور معهـم، لأن معظـم جيرانهـا في بيـت الطلبـة مـن الأجانـب. وهكـذا قابلـت مارتـن وإيفـا. وهكـذا بـدأ حبـل الـكلام ينغـزل. مقتضبًـا في البدايـة، يـزداد طـولًا مـع الوقـت. في الردهـة، والمكتبـة والحديقـة، في «المِنـزا» وأثنـاء رحـلات اليـوم الواحـد.

ثـم انفتـح الأفـق أكـثر ليشـمل المعـارض والمتاحـف والمسرحيـات وحفـلات الموسـيقى. وهـذه النشـاطات تصاحبهـا عـادة نقاشـات، والنقاشـات صاحبتهـا ضحـكات، والضحـكات كانـت ذائبـة مـع نكهـات «الآيـز»- أي الآيـس كريـم. المشـكلة الأكـبر أن الحيـاة صـارت تشـبه الحيـاة، وتغـري باقـتراف مغامـرات غـير محسـوبة العواقـب.

منهـا أنهـا ألغـت إشراف أسـتاذها المـصري وقـررت البقـاء في ألمانيـا عـلى نفقتهـا لاسـتكمال الدراسـة حتـى تنـال الدكتـوراة. تلقـى أبوهـا الصدمـة ليّنـا كعادتـه، يخفـي فخـرًا بابنتـه التـي سـتحصل عـلى الدكتـوراة مـن «بـلاد بَـرّا»، بينـما عارضـت أمهـا بشـدة هـذا المسـار المحتـوم أن يتـوج بالعنوسـة. وخاضـت ضـد قرارهـا معركـة شرسـة، اسـتخدمت فيهـا كل أنـواع القهـر العاطفـي بالتعـاون مـع الأمـراض المزمنـة مـن ضغـط وسـكر. ولكـن مـن بيـده أن يوقـف جريـان السـيل إن أراد أن يشـق لنفسـه مسـقطًا جديـدًا؟ هكـذا حلـت القطيعـة ووجـع القلـب. ألم يكـن مـن الأولى انتظـار العـدَل وكفايـة عـلام لحـد الليسـانس؟ لكـن بنـات آخـر زمـن كلامهـم مـن راسـهم! ورغـم اختلافنـا مـع عديلـة، لا بـد أن نعـترف أنهـا أدركـت بحاسـة الأم أن حصـول ابنتهـا عـلى الدكتـوراة شر كان ينبغـي أن تبتعـد عنـه. ولمـا كانـت شـيماء ابنـة بـارة، ولمـا كان كل الأبنـاء الـبررة يشـعرون دائمًـا بالذنـب لِـما كان منهـم ومـا لم يكـن ومـا قـد يكـون، لم تقـدر أن تسـتمر في غربتهـا دون أن تنـال بركـة أمهـا التـي تمثلـت في خاتـم خطبتهـا إلى هـاني ابـن عـم إبراهيـم النجـار. حـد طايـل؟ هـاني شـاب شـديد الوسـامة تتمنـاه أي بنـت.

وهـو أيضـا كسّـيب، لا يكتفـي بالعمـل مدرسًـا في مدرسـة التجـارة صباحًـا، بـل يعمـل في ورشـة أبيـه مـن بعـد العـصر. وهـي ورشـة بسـم اللـه مـا شـاء اللـه تـدر عليهـم دخـلًا محترمًـا. هـاني أيضًـا متنـور، فهـو يعـرف كيـف يقـرأ الكتالوجـات الإيطاليـة وينفـذ في ورشـته غـرف النـوم والسـفرة المـودرن. هنعـوز أحسـن مـن كـدا إيـه؟ والرجـل كـثر اللـه خـيره سـيتركها تكمـل، وموافـق أن يكتـب الكتـاب في الصيـف القـادم ليلحـق بهـا في سـفرها.

لم تفكـر شـيماء طويـلًا ورضيـت بهـاني مـن أجـل عيـون رسـالتها حـول الرومانتيكيـة الألمانيـة. ألزمتهـا الخطبـة بتبـادل الإيميـلات القصـيرة مـع هـاني بشـكل يومـي، والحديـث معـه عـلى سـكايب في عطلـة نهايـة الأسـبوع. وكان أحيانًـا، يطلـب أن يراهـا، فتضطـر إلى تشـغيل الكاميـرا بعـد أن ترتـدي بلـوزة خـروج فـوق جلابيـة البيـت وتربـط حجابًـا عـلى شـعرها الـذي تتمنـى لـو تتركـه أشـعث في عطلـة نهايـة الأسـبوع بعـد أن حـرم مـن حريتـه مـن الصبـاح وحتـى موعـد النـوم طـوال الأيـام السـابقة. لكـن، حـاضر- مفيـش مشـكلة. لم تكـن شـيماء كثـيرة الـكلام ولا حريصـة عـلى الجـدل مـع أنهـا متأكـدة أن دماغهـا تـوزن بلدهـم كلهـا. فليـس مـن العقـل أن تغامـر بحريتهـا التـي تكتسـبها خطـوة بعـد أخـرى، بهـدوء وأدب بعيديـن عـن أي صخـب متمـرد. رضيـت أن تظـل ذات شـخصية شـاحبة بـلا حضـور بـارز للعيـان، مثـل بخـار شـفاف يتسـلل رويـدًا مـن الغرفـات الضيقـة ثـم ينفلـت بخفـة إلى الـبراح الفسـيح. وفي مقابـل أن تنتقـل في حياتهـا مـن محطـة لأخـرى بـلا معرقـلات تكبـح تقدمهـا، صـارت تـوازن دائمًـا مـا بـين

وصل الكلام وقصره في حسابات دقيقة لا تسمح لنفسها بالخطأ فيها أبدًا، حتى بدت لنفسها في الأخير عدة شيماوات في هيكل وحيد. من أجل ذلك أتقنت قراءة محدثيها بحساسية منقطعة النظير فتعطي كل واحد فيهم الشيماء المطياعة التي يحتاج. ومن المنصف أن نقول هنا إنها لم تكن منافقة. فلا شيماء فيهن أقل صدقًا من الأخرى، ولا واحدة فيهن تمثل نفسها الحقيقية تمامًا. وما نفسها الحقيقية؟ لن تتوقف طويلًا أمام هذا السؤال لتلحق بالطائرة المسافرة إلى هناك. وهل نفسها تلك موجودة هناك؟ أيضًا لن تقف أمام هذا السؤال لتلحق بالطائرة العائدة إلى هنا. فالإجابة -في رأيها- لن تمثل فارقًا جوهريًا، لأن الأهم -في رأيها- هو أن تظل الطائرات تسافر بهن جميعًا بين هنا وهناك، وأن لا تعرقل إحدى الشيماوات صاحباتها الأخريات عن مواصلة المسير لحين اكتساب الطاقة المطلوبة حتى موعد القفز الحر.

ما المانع إذن أن تستمر في هذه اللعبة حتى آخر العمر؟ لقد آمنت بقدرتها أن تعطي هاني الشيماء التي يريد، لتحظى بلحظات من السلام تقضيها هي مع الشيماء التي تريد. وحده مارتن أفسد التوازنات الدقيقة وألقى أحجاره في سلام البحيرة الهادئة فدوّمت دوامات اجتاحت كيانها كله وعصفت به. لم يسمح مارتن لنفسه أن يناقشها في دينها وإيماناتها، ولم يحشرها، مثل الآخرين، في الركن الذي تضطر فيه أن تنافح عن الله والوطن والملك. وكان وجود هاني في حياتها، وإيفا في حياته معامل أمان إضافي أتاح لهما الكثير من حرية الحركة، وحرية الكلام، والحرية

في المجمل! وآه من تلك الحرية التي تجعل فتاة السنبيلاوين ترغب في التفكير والتعبير والتدفق والاشتعال وكأن الحياة مستها أخيرًا بعد طول موات، فتصير تنظر في مرآتها وترى نفسها جميلة. جميلة ومتوهجة.

ثم كانت باريس. وكل العاشقين يدركون تمامًا الأهوال التي يمكن أن تقع حين تتقاطع باريس مع مدار برج السرطان. ولنترك «تورإيفيل»، و«اللوفر»، و«باتوموش» ونتوقف دقائق في «قصر فرساي». وكيف لقصر أعادت معاهداته رسم خارطة أوروبا وتاريخ العالم أن يرحم حديقة مصرية خضراء غير مشذبة على الطراز الفرنسي؟ أطفأت السماعة الإليكترونية التي تقوم بدور المرشد السياحي ودخلت في تيه «قاعة المرايا» تراقب -ربما للمرة الأولى- ذلك العدد المذهل من الشيماوات المطلات عليها من المرايا المتعاكسة. ألف شيماء وشيماء. ألقت حقيبة ظهرها على الأرض وفردت ذراعيها في الهواء وكأنها تمسك أطراف فستان أميرة من أميرات الحواديت. حواديت شارل بيرو ولافونتين والأخوين جريم لا حواديت ست الحسن والأميرة ذات الهمة وأسطورة شمس النهار. نسيت شيماء أن أميرات حواديتنا أوسع حيلة. انتبهت على مارتن يحيط خصرها بيده اليمنى، وباليسرى يلتقط أطراف أناملها وهو يحنى قامته الفارعة، في حركة تمثيلية أراد بها أن يراقصها. في التو سحبت نفسها ارتباكًا وحملت حقيبتها من جديد. كانت إيفا تراقبهما فضحكت من ارتباكها ثم اعتذرت لها قائلة «إن مارتن لم يكن يقصد أن يحرجك ولكنا اعتقدنا أنه سيكون من الطريف أن ترقصا معًا في هذه

القاعـة المليئـة بالمرايـا ذات الأطـر المذهبـة». كانـت ابتسـامة الارتبـاك لا تـزال تزيـن وجههـا الـذي احتقـن بالدمـاء فضاعـف مـن شـعورها بالحـرج. قالـت لتنقـل الموقـف المبتـذل إلى المربـع التـالي: «لم أسـتطع تتبـع المسـار المسـجل عـلى الجهـاز ولم أتمكـن مـن مشـاهدة سـوى ثـلاث قاعـات فقـط. لسـت أومـن بجـدوى المرشـد الإليكـتروني، طالمـا كان مـن الممكـن الاسـتعانة بالإنسـان في وظيفـة كهـذه».

ليتهـا مـا ذكـرت سـيرة الإرشـاد. فهنـا أخبرهـا مارتـن أنـه كان يعمـل مرشـدًا أدبيًـا في مدينـة هايدلـبرج ولم تكـن شـيماء قـد سـمعت عـن الأمـر مـن قبـل. مرشـد أدبي؟ رحلـة أدبيـة داخـل المدينـة الجميلـة؟ أتوقـع أن يكـون الأمـر رائعًـا وفريـدًا. لا بـد أن تصحبنـي إلى هنـاك قريبًـا. مسـكينة شـيماء. كيـف لم تـدرك بعـد أن ربـات ديلفـي تحكـن لهـا مغامـرة مـن نـوع خـاص، وإلا فـما معنـى أن تـأتي رحلـة إلى هايدلـبرج بعـد رحلـة باريـس؟ وعدهـا أن يصحبهـا إلى هنـاك في أوائـل الخريـف.

كانـت راضيـة جـدًا عـن الاتفـاق ومتحمسـة، وكثـيرًا مـا يتحمـس الإنسـان لمـا فيـه هاويتـه -هكـذا علمتنـا الحواديـت. كـم مـرة حتـى الآن ضبطـت نفسـها متلبسـة بمراقبـة إيفـا ومارتـن كـما لم تراقبهـما مـن قبـل- ولم تعـد تغـض الطـرف حـين يهيـمان في قبـلات حميمـة؟ إيفـا قصـيرة جـدًا، ممتلئـة القـوام، شـعرها أشـقر شـاهق يميـل إلى البيـاض المزعـج. لكنهـا تعـترف أن ملامـح وجههـا تـكاد تكـون منحوتـة مـن فنـان عبقري مثـل كل فتيـات أوروبا الشرقيـة. عرفنـا سـلفًا أن مارتـن جرمـاني أصيـل، فـارع الطـول، ولنضـف الآن

أنه حليق الرأس، قوي البنية رخيم الصوت عميقه. حين ينطق باسمها «ششايماا»، مشددًا على الشين لاغيًا الهمزة، تشعر أن صوته سحبها وألقى بها في غيابة بئر. لم تجرؤ هي قط أن تناديه باسمه وكأن سرها سينفضح بمجرد أن تلفظ حرف «الإم» الممدود. لو أن لها ملامح مصرية صميمة لخلبت لبه منذ الوهلة الأولى. لكنها للحسرة بيضاء كما يراها المصريون، شاحبة في قول الألمان. لا يخلو وجهها الهادئ من مسحة جمال من مثل تلك التي تباهي بها فتيات دمياط والمنصورة ويعزونها متدللات إلى القرابة التي تربطهن بجدهن الصليبي الأسير لويس التاسع. من الذي أوقع الآخر في الأسر هذه المرة؟ ترى بم تشعر إيفا وهي تكاد حرفيًا تغرق في حضن ذلك الذي حرفيًا يلتهمها التهامًا؟ عيب عليك يا شيماء. عن أي شيماء نحكي؟ ربما عن شيماء قررت أن تتحرك من مربع العيب إلى مربع العار والشنار!

قررت أم وجدت نفسها مدفوعة إلى ذلك دفعًا؟ لا فرق، خصوصًا حين يتعلق الأمر بشراء فستان خصيصًا من أجل رحلة هايدلبيرج. وشكرًا لمخترع «البادي الكارينا» الذي ساهم بدور فعال في هذا المشهد، الذي اكتملت جمالياته بلفة طرحة منسوبة خطأ إلى إسبانيا. فوجئت أن مارتن جاء مرتديًا سترة كلاسيكية فوق بنطاله الجينز. هل كان هو أيضًا يشعر أنها رحلة فوق العادة؟ ركبت القطار مع مارتن في العاشرة صباحًا وبدأ حوارهما قبل ذلك. وبمشقة بالغة ألجمت ملامح وجهها كي لا ترسم أمارات سعادتها المفرطة بمرض إيفا المفاجئ الذي منعها من

السفر معهما. كانت متأكدة أنه لاحظ تأنقها غير المعتاد وأنه أعجب جدًا بربطة شعرها -عفوًا- ربطة إيشاربها لأنه لم يعلق على ذلك ولو بكلمة. صار يتجنب المجاملات التي تربك تلك القروية غير الساذجة لأنها تفرض صمتًا ملتبسًا بينهما. لاحظت أيضًا أنه صار حريصًا جدًا ألا يمس ظهرها أثناء صعودها أو هبوطها من القطار مثلما كان يفعل بتلقائية في السابق فقط ليطمئن على ركوبها بسلام، كما أنه لم يعد يمد يده إليها كما عادته لتمسك بها في الهبوط فلا يختل توازنها. ترى هل يتعمد أن يستبقي حالة انعدام الوزن التي صارت تعاني منها في الآونة الأخيرة؟ ياريت!

لم تستطع أن تفسر ما يحدث، ولم تكن تريد أن تفكر مطولًا فيه. والغريب أن الشيماوات كلهن أجمعن على أن أفضل ما يمكن أن يفعلنه الآن هو الخلود أخيرًا إلى النوم السرمدي الذي طالما تقن إليه؛ ولتبق منهن واحدة فقط هي الوحيدة التي تستحق البقاء. فهل توافق شيماء على ذلك وتدفع تكلفته الباهظة راضية؟ بطبيعة الحال ينبغي أن نستكمل هنا الكليشيه الطريف المعروف عن هايدلبيرج، فنقول مثل القصيدة الشهيرة، إن شايما «فقدت قلبها فيها وسقطت في الحب حتى أذنيها»، خصوصًا في اللحظة التي أخرج فيها مارتن كتيبًا صغيرًا من جيب سترته وتلا عليها منه بعضًا من بواكير قصائد جوته التي تسجل غراميات الشاعر الشاب وعشقه لشارلوته خطيبة صديقه. هنا ردت شيماء -المتخصصة في الرومانتيكية الألمانية- عليه بقصيدة هاينريش

هاينه القصيرة الساخرة عن «الفتى الذي يحب فتاة تحب آخر، الذي بدوره يتزوج بفتاة أخرى تحب آخر». لقد وصلت الرسالة الأدبية إذن وشحنت الصمت الذي ران باحتقان عاجز، لم تفلح معالم المدينة القديمة، ولا القلعة الشهيرة، ولا صعود الجبل على «طريق الفلاسفة» في التغلب عليه.

ومع تصاعد التوتر الأبكم ابتاع مارتن من أحد دكاكين المدينة القديمة ما يسمى «قبلة التلامذة». إنها الشوكولاته التي يشتريها السياح تذكارًا مميزًا من المدينة التي كانت تعاقب طالب الجامعة سيء السلوك بالحبس في سجن خاص، ولهذا ابتدع تلاميذ القرون الفائتة هذه الحيلة الطريفة لتكون الشوكولاته رسالة رمزية يهديها العاشق المحروم إلى حبيبته البعيدة، دون أن يتهدده السجن. في محاولة يائسة لإبعاد خواطرها عن الشوكولاته اقترحت شايما أن يتنزها في الغابة الكثيفة المتاخمة للنهر العريق. لكنها للمفاجأة أنهكت أيما إنهاك واكتفت تمامًا من تاريخ الفن والأدب والموسيقى ومن فلسفات القرن الثامن عشر وثورات القرن التاسع عشر. ولم تكن تتصور أن ثورة من تلكم الثورات يمكن أن تشتعل أقوى من عنفوانها لو أن ذراع مارتن أحاط خصرها الآن وهنا، أو ضمها ليأخذها كلها في بدنه الفارع مثل سنجاب خائف يختبئ في شجرة صنوبر شاهقة. توقف مارتن عن المشي الذي أنهكه هو أيضًا ووقف قبالتها ينظر إليها نظرات مطولة عميقة تقشر شيماواتها الواحدة بعد الأخرى. غرقت في زرقة عينيه الداكنة

ولم تعد تعرف على أي حال سيتركها ذلك الفارس الجرماني، الذي فجأة وضع في يدها «قبلة التلامذة» وشد عليها بقبضته القوية حتى كاد يهشم أصابعها ثم قال بنبرته الرخيمة الآمرة «لنرحل! لنرحل الآن، ينبغي أن نعود أدراجنا. لقد تأخر الوقت جدًا، وينبغي أن أتفقد حال إيفا» ابتلعت ريقها، وأشاحت بوجهها، وجاهدت لتخرج «تمام، أوكيه» دون أن تعري الكلمات الخذلان الذي يفترس رأسها كصداع نصفي.

مضت أسابيع كانا لا يلتقيان إلا وإيفا معهما، ولا يتحدثان لأن الكلمات قد نفدت. القرفة فقط، ممزوجة باللبن وبدون سكر كما عودتها أمها، ظلت صديقتها الوفية تعينها على برد الشتاء وقرص الوحدة، وصقيع الروح. أما «قبلة التلامذة» فبقيت مستتبة فوق المكتب، لا تأكلها ولا ترميها. عرفت أنه سيسافر مع إيفا إلى «فارشاو» لقضاء الكريسماس هناك بين أهلها. سلما عليها وترك لها دراجته. لم تعد شايما إلى مصر في إجازة عيد الميلاد، ولم تعد تقدر أن ترد على رسائل هاني الذي لا يزال يكتب لها يوميًا، ولم تعد تريد أن تراه عبر كاميرا سكايب. ولم تعد. هي ببساطة لم تعد. شايما واحدة فقط ظلت تهطل دمعًا غزيرًا تحول إلى شجو صامت بعد أن بيّض الثلج ربوع المدينة.

والآن تأتي رسالته.

سيعود.

سيعود؟ لم تشأ أن تصنع مختارات من المحاشي المصرية التي تذوقها مارتن من يديها من قبل حتى لا تشي بتكبد مشقات خاصة. وبذكائها

الأنثوي الذي يحاول أن يجرب نفسه قدرت أنه لن يرفض تناول الشوربة بعد سفرته الطويلة. لتدعوه إذن لتناول الشوربة، ولتخرج بعدها بقية الأصناف وتدعي أنها من بقايا اليوم السابق. أما الفستان فقد حسمت أمرها بشأنه، وكذلك البادي الكارينا الذي قررت أن تعفي نفسها منه هذه المرة. ستخرج له كما هي. بفستان أسود مكشوف الذراعين، وبشعر مسدل لا يكبحه قيد.

أعدت الطعام ثم وضعته في الثلاجة استعدادًا للحظة المسرحية التي ستخرجه فيها بعفوية أمام مارتن. سمعت وقع أقدام في جراج الدراجات بالأسفل. نظرت من الشرفة فرأت أنه قد وصل. كان يحمل باقة ضخمة من زهور لم تتبين نوعها. انتفضت راجعة إلى الوراء حتى لا يلمحها إن رفع رأسه نحو شرفتها. جرت مسرعة إلى مرآتها لتحمر شفتيها المزرقتين. وفي مرآتها أطلت عليها شايما فريدة، واحدة فقط مشرقة وبهية. عرفتها على الفور. كانت «الشايما» التي تاهت منها من زمن بعيد. تلك التي ظلت تبحث عنها وتشتاق إليها. لقد عادت أخيرًا. وقبل أن تستوعب وجدت نفسها تهطل دمعًا لم تملك له دفعًا. فتحت الصنبور وغسلت وجهها. لكنها كلما مسحت دموعًا فاضت أخرى. بدت المسألة وكأن نهر «الراين» قد قرر أن يفيض من عينيها، وأنها استسلمت تمامًا لجرفه المؤلم. بعد محاولات بائسة لصد الطوفان انتبهت أخيرًا أنها لم تسمع رنة الجرس على بابها بعد. خرجت ونظرت من عين الباب، دون أن تواتيها الشجاعة لفتحه. وجدت مارتن جالسًا قبالة الباب على السلم.

قـد غفيـت باقـة الزهـور إلى جـواره وهـو صامـت يحـدق في الـلاشيء. يبـدو أنـه هـو أيضًـا يصـارع فيضـان «الرايـن».

.

طفلة القمر الأزرق

كلما حدقتُ في عينيكَ رأيتُها،

رغم أنهم جميعًا لم يعترفوا قط أنكَ تشبهني. كانوا يدّعون إنك تشبههم هم. ويدللون على صدقهم بجبهتك العريضة أو ذقنك المستدق. لم أعرهم التفاتًا. هم لم يعرفوها قط. لو كانوا عرفوها ما أتعبوا أنفسهم كل هذا التعب من أجل إثبات ما لا أهمية لإثباته. أنا التي كنت أراها. منذ اللحظة التي أتت بك الممرضة إليّ، ووضعتك بين يدي. في البدء شممتُ رائحتها، وكذبت أنفي. ثم شعرت بجلدها الناعم على جلدي، فقلتُ لعلني مخطئة. حين ألقمتك ثديي تعرفتُ للتو على إصبعيها الصغيرين يتشبثان بإبهامي. ساعتها قالوا إن كل المواليد تتكرر لديهم نفس ردة الفعل لا إراديًا. مرت ليال طوال، وتبدل القمر مرة أو مرتين، وأنا متأكدة من حضورها المقاوم كنطفة معلقة في ظلمة الغيب. فتحتَ عينيكَ ولم تغلقهما على الفور. ثبتَّ نظراتك في عينيّ لتستوعب وجودي، ساعتها لمحتُ طيفها المراوغ وتأكدتُ من صدق حدسي. إنها هناك فعلًا. تطل عليّ من قمريك الزرقاوين. الطفلة ذات السنوات الخمس التي ذات شتاء بعيد جدًا رافقت أباها

ليشتريا طلبات المنزل في سيارته الجديدة- الأوبل البيضاء موديل ١٩٨٠. تقافزت فرحتها لأن الفرصة جاءتها أخيرًا لتجلس في المقعد الأمامي مكان أمها، وأنها لوقت طويل، ستلعب دور المذيعة الذي تحبه جدًا بعد أن تسحب ميكروفون السيارة وتسأل أباها «عندك مشكلة؟» مقلدة آمال فهمي في برنامجها الشهير «على الناصية»، وتظل تسأل وتسمع، وهو يحكي وهي تقاطعه كي لا يبتعد الميكروفون عنها، ثم تختتم حوارها الطويل معه بالسؤال المعتاد «تحب تسمع إيه؟» لتبدأ هي في وصلة الغناء في الميكروفون إلى أن يصلا إلى غايتهما المنشودة.

بعد أن خرجا من السوبر ماركت وضع أبوها الأغراض في حقيبة السيارة. كانت تناوله الأكياس واحدًا بعد الآخر وهي واقفة على الرصيف، تهيئ نفسها لحلقة جديدة من البرنامج الإذاعي. بعد أن أتما المهمة تقدمت نحو باب السيارة الأمامي وانتظرت، بينما لف أبوها ليركب من الناحية الأخرى. فتح الباب ودخل وأغلقه وشغل المحرك. حاولت بتلقائية أن تفتح الباب قبالتها، لكنها لم تستطع. كان ثقيلًا. حاولت مرة أخرى وفشلت من جديد. استنتجت أن الباب موصد من الداخل، وأنه لم يرفع (العصفورة) من ناحيتها. طرقت نافذة السيارة

برقة. لم يلتفت إليها. علا صوت المحرك فلبسها ذعر. طرقت طرقات أخرى أعلى. لم يلتفت أبوها ولم يفتح الباب الموصد. أجهشت في البكاء. راقبت الولاعة بعد أن أدارها. عين مارد تتوهج في ظلام السيارة، تترصدها، تقذف بِشَر لم تر له مثيلًا. طرقت على النافذة أعلى وأعلى. دس سيجارته في الولاعة فاشتعلت. علا نشيجها. دخنها بتلذذ ثم نفث الأشباح التي اتجهت ناحيتها. صارت تصرخ لكن صرخاتها خرجت بلا صوت. صرخت أعلى، لكن ظلت صرخاتها مكتومة. وأبوها لا يلتفت ناحيتها. يتصرف وكأنها غير موجودة. وكأنها لم توجد قط. كان ينظر من نافذته إلى الجهة الأخرى من الطريق. يفتح منفضة السجائر ويضع فيها الرماد المحترق. ألصقت وجهها المبتل بالدموع على زجاج النافذة، وخبطت بيدين صغيرتين واهنتين. لم يلتفت. ضياع مستطيل ومصمت ألقى عليها عباءة قاتمة أصابتها بصمم وعمى. تحرك بالسيارة فسقطت في هوة باردة.

عاد بعد لحظات ظل يقول إنها كانت قصيرة. بل لعله قال إنه لم يتحرك بالسيارة قط. نظرت له غير فاهمة. أركبها إلى جواره ثم انطلقا في طريق المنزل. قال كلامًا كثيرًا لم تسجل منه شيئًا. ربما بقي منه أثر ما عن

المزاح. وربما تحدث عن الثقة أو لم يتحدث. هي لا تذكر سوى أن الطفلة ذات السنوات الخمس التي سقطت في الهوة الباردة ظلت هناك على الرصيف. أطلت من النافذة وظلت تلوح لها لتلحق بها، لكن السيارة كانت أسرع. غاب وجه الطفلة مع ابتعاد السيارة، لكنها ظلت تسمع صرخاتها المكتومة.

في الأيام المقبلة ستشعر بها في كل حين. ورغم أنها لم تعد تراها، لكنها تسمعها جيدًا تبكي من هناك، من الهوة الباردة، وتئن من عظامها التي سكنت فيها. تصرخ صرخات مكتومة لا يسمعها سواها. ستحاول كثيرًا أن تخبرها أن شرًا فظيعًا لم يحدث، وأن اكتشافها قدرة حبيبها المذهلة على الإيذاء كانت من نسج خيالها الخصب. لكن بلا فائدة. لسنوات مقبلة ستحاول أن تدثرها في عظامها لتشعر ببعض الدفء. لكنها ستظل ملتحفة بالذعر. حاولت مرة أن تقتلها ليسكن الأنين في عظامها، لكنها لم تفلح. ظلت الريح تهب عليها من تلك الهوة باردة فأبرد. ولم ينر ظلام الهوة قمر، وكانت النجوم بعيدة بعيدة.

حين أفاقت بعد الولادة اعتراها دفء جديد. قالوا إنها منهكة من آلام المخاض. وكانت تعلم أنها ليست كذلك.

قالـوا إنهـا ستشـعر بتغيـيرات في جسـدها، وكانت تعـرف أنهم لا يعلمـون أن الطفلـة المذعـورة تسربـت مـن عظامهـا. ظلـت طـوال الليـل تتسـاءل عـن مصيرهـا، وأيـن سـيتعين عليهـا أن تبحـث عنهـا. حـين أتـوا إليّ بـك متدثـرًا في غطائـك الوثـير عرفـت كل شيء. وحضنتـك بـكل عمـري الواهـن. أنـا الآن أراهـا. في زرقـة عينيـك. أمـد لهـا يـدي. أهمـس لهـا أن القمـر اكتمـل. يسـكن الـصراخ. تبتسـم أخـيرًا، تمسـك بالميكروفـون وتسـألني «تحبـي تسـمعي إيـه؟»

نيرمين الشرقاوي: مدرس الأدب الألماني والحضارة والترجمة بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة. درست علوم وآداب اللغات الألمانية والإنجليزية والعربية في القاهرة، وحصلت على درجة الدكتوراه من كلية الألسن بجامعة عين شمس بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في عام ٢٠٠٩م. حصلت على العديد من المنح العلمية والدراسية من «الهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي». لها أيضًا نشاط ثقافي بالتعاون مع «المركز الثقافي الألماني» (معهد جوته)؛ إذ شاركت كمترجمة فورية في عدد من الندوات التي أقامها المعهد في مجالات أدب الأطفال والشباب، والتشجيع على القراءة، ودعم الناشرين المصريين. تعاونت مع معهد جوته في ترجمة مشروعات: «لي لك»، و«مداد»، و«رواة المدن»، وكلها مشروعات تُعنى بالتفاعل الثقافي بين الشرق والغرب باستخدام الميديا الحديثة وعلى رأسها الإنترنت. شاركت في عدد من المؤتمرات الدولية والمحلية وورش العمل بمصر وألمانيا التي تُعنى في المقام الأول بإشكاليات الترجمة الأدبية، والتداخل بين الثقافات، وأدب الأطفال والشباب في عصور التحوُّلات، ولها أبحاث منشورة في هذه المجالات. لها ترجمات منشورة لبعض أعمال كتاب وشعراء ألمان بارزين مثل: هاينريش هاينه، وبيرتولت بريشت، وهرتا موللر، ومجموعة قصصية لإنجو شولتسه (تحت الطبع) بالتعاون مع المترجِمات المشاركات في جائزة معهد جوته للمترجمين من الألمانية.

قراؤنـا الأعـزاء.. تحقيقًـا لحلـم التواصـل بـين الكاتـب والقـارئ ودور النـشر، والاهتـمام بمعرفـة رأيـك دائمًـا ننتظـر أن تتواصـل معنـا لتقييـم أعمالنـا عـبر الإيميـل، أو عـبر صفحـات مواقـع التواصـل الاجتماعـي، مـن أجـل تحقيـق حلـم بنـاء جيـل واعـي ونـشر بـذور الثقافـة بالمجتمـع والمنـادة بتنشـئة عقـول أساسـها الثقافـة والعلـم.

مدير النشر: أسماء فخر الدين

شهرزاد للنشر والتوزيع

E-mail: shahrazadpub@gmail.com

facebook: Shahrazadpub

shahrazadpub٢٠١٥

twitter: shahrazadpub

للشراء عبر صفحة البوك ستور الإلكتروني:

صفحتنا على الفيس بوك: شهرزاد بوك ستور